مَوْسُوعَةُ فَوَائِدِ القُرآن الزكِيَّة

سُورَةُ الرَّعْدِ

أ.د خالد بن حامد الحازمي

أستاذ الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية سابقاً

موسوعة فوائد

القرآن الزكية

سورة الرعد

أ.د. خالد بن حامد الحازمي

أستاذ الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية سابقاً

فوائد سورة الرعد

﴿ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾

﴿ الٓمٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِۗ وَٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِي رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ يُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمۡ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي مَدَّ ٱلۡأَرۡضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۡهَٰرٗاۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ قِطَعٞ مُّتَجَٰوِرَٰتٞ وَجَنَّٰتٞ مِّنۡ أَعۡنَٰبٖ وَزَرۡعٞ وَنَخِيلٞ صِنۡوَانٞ وَغَيۡرُ صِنۡوَانٖ يُسۡقَىٰ بِمَآءٖ وَٰحِدٖ وَنُفَضِّلُ بَعۡضَهَا عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلۡأُكُلِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴿٤﴾ ﴾

ابتدأت سورة الرعد بأربعة من الحروف المقطعة ﴿ الٓمٓر ﴾ فهي أربعة حروف مقطعة، يعجز عن إدراك دلالتها الإنسان، ليقف مذهولاً أمامها، لا يعرف عنها شيئاً، وليقف على أسلوب لم يسمع به من قبل، ولم يخطر بباله هذا البناء اللفظي، ليدفعه ذلك شوقاً لمتابعة ما بعدها. وعِلْمُ معناها ومرادها فهو عند الله تعالى، إذ هي سِرٌّ من أسرار الله تعالى في كتابه، فنؤمن بها، ونقرؤها كما جاءت. وهي من الذي لا يُفَسَّر. وقد تم ذكر بعض فوائد ذلك في سورة البقرة ولله الحمد والشكر، وهناك من اجتهد في معناها ودلالتها، فقد نقل ابن الجوزي رحمه الله تعالى وغيره، عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما في معنى ﴿ الٓمٓر ﴾ ثلاثة أقوال: الأول: أنا الله أعلم وأرى. والثاني: أنا الله أرى. والثالث: أنا الله الملك الرحمن[١]

ومن فوائد ذلك أنها محك واختبار لمن يؤمن ويُقر بها كما جاءت، وأما الوقوف على فوائدها، فقال جمع كبير من العلماء: بل يجب أن نتكلم فيها؛ ونلتمس الفوائد التي تحتها[٢]

---

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٢٢٤/٤)

(٢) القرطبي، لجامع لأحكام القرآن (١٠٩/١)

فمن فوائد ذلك شد الانتباه، قال قطرب عن العرب: أنهم كانوا ينفرون عند سماع القرآن، فلما سمعوا ﴿ الٓمٓ ﴾ و ﴿ الٓمٓصٓ ﴾ استنكروا هذا اللفظ، فلما أنصتوا له صلى الله عليه وسلم، أقبل عليهم بالقرآن المؤتلف ليثبته في أسماعهم وآذانهم، ويقيم الحجة عليهم.(١)

فلما نزلت هذه الحروف المقطعة بقَوا متحيرين، فقد خاطبهم بما لا يفهمون، ليُقبلوا على استماعه، لأن النفوس تتطلع إلى ما غاب معناه عنها، فإذا أقبلوا إليه خاطبهم بما يفهمون، فصار ذلك كالوسيلة إلى الإبلاغ، إلا أنه لا بد له من معنى يعلمه غيرهم، ويكون معلوماً عند المُخَاطب. فهذا الكلام يعم جميع الحروف(٢) وهذا يُفيد أهمية التشويق في التعليم، وأهمية لفت الانتباه، وشد ذهن المتعلم لما يُراد تعليمه إياه، وإخباره به، وإشعاره بحاجته لما سيسمعه، حتى يعلم ما فيه من علم ومعرفة، أو نصيحة، أو غيرها مما يُراد نقله إليه.

وبعد أن ذكر الله تعالى ما استفتح به من الحروف المقطعة، يُشيد سبحانه وتعالى بآيات القرآن الكريم، والثناء عليها بما اتصفت به من الأوصاف الحكيمة العظيمة ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ فتلك الآيات التي سبقت فيما نزل إليك قبل هذه، هي آيات الكتاب، أي من القرآن الكريم، وهذه الآيات من هذه السورة هي آيات من كامل الكتاب الذي هو القرآن الكريم، فجمعت ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ الإشادة والتأكيد بما سبق من القرآن الكريم فيما نزل على النبي عليه الصلاة والسلام، بأنها دلائل إعجاز، وكذلك الإشادة بما تضمنته هذه السورة من الآيات العظيمة.

ثم يقسم الله تعالى بأن هذا الذي أُنزل عليك من القرآن الكريم هو الحق الذي لا ريب ولا مراء فيه، ولا جدال في أنه من الله تعالى ﴿ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ ﴾ أي: هو الحق، فنفى عنه بذلك الباطل تماماً، فالذي أنزل عليك أيها النبي من القرآن وغيره من الوحي هو الحق، لينتفي به كل ما عداه من الباطل، وأفادت دلالة كلمة ﴿ ٱلْحَقُّ ﴾ شمولية الحق في نزوله وفي مضمونه وسياقه أنه حق معجز من الله تعالى،، وفي حروفه، وكلماته، وأحكامه، وتشريعه، وقصصه، وأخباره، فإنها حق، فهو منزه عن الباطل تماماً، ومقتصر على الحق. وفي هذا تحدي من أن يوجد فيه شيء من الباطل.

وقد أكد الله تعالى بأنه مُنَزَّلٌ من عنده ﴿ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ﴾ فهو كتاب أُنزل من عند الله تعالى، وأنه ليس لنبيه صلى الله عليه وسلم، ولا لأحد من ملائكته، ولا لأحد من خلقه شيء منه. ثم يخبر

(١) المرجع السابق (١/١٠٩)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١/١٧)

الله تعالى عن حال الناس تجاه هذا الحق الواضح المبين ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ فإن أكثر الناس من مشركي قومك، وغيرهم لا يُقِرُّون ولا يُصَدِّقُون بهذا الحق الذي أنزل إليك من ربك. وفي هذا الحكم من الله تعالى خبر إعجاز، إذ أنه منذ أن نزل القرآن الكريم على رسوله صلى الله عليه وسلم إلا أن أكثر الناس كافرون برسالة محمد صلى الله عليه وسلم، وبالقرآن الكريم. ومن دقائق البيان أنه عَزَّ وجل أوضح حال أكثر الناس بأنهم لا يؤمنون، لتستوعب جميع علل وتنوع أسباب عدم الإيمان، ما كان منه عناداً، أو تهاوناً، أو لتعارضه مع أهوائهم وشهواتهم البهيمية، أو تقديمهم الشبهات على الحق، أو استكباراً، أو حسداً، أو لغير ذلك من الأسباب.

ثم يخبر الله تعالى بدلائل قدرته سبحانه وتعالى، وربوبيته، وألوهيته من خلال لفت الانتباه إلى مخلوقاته عَزَّ وجل، فبدأ بخلق السماوات ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ﴾ فإن الله تعالى هو الذي أوجد السماء كما ترونها مرفوعة من غير أعمدة تقوم عليها، فلو كان لها عمد لرأيتموه، أفلا يدل علوها، وسعتها، وقيامها مع ثبوتها من غير أعمدة على قدرة وعظمة خالقها سبحانه وتعالى، فإنه ليس لمخلوق عاقل أن يقول هي أوجدت نفسها، وبالتالي فإن هناك خالق تبارك وتعالى قد خلقها، فأوجدها بهذه الكيفية، وهذه الحقيقة.

ثم يلفت الانتباه إلى عرشه عَزَّ وجل، فينتقل من عظمة الْمُشَاهَد، إلى عظمة مالا يشاهده المخلوق ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾ فإنه سبحانه وتعالى استوى على العرش، الذي لا يُقدِّر قدره إلا الله تعالى. والعرش أعظم المخلوقات وسقفها. فبعد خلقهن استوى على عرشه جَلَّ جلاله. استواء يليق بجلاله وعظمته وسلطانه، وهو العرش الذي يسع السماوات والأرض، وما فيهما، وما بينهما، استواء يليق بعظمته وجلاله وقوة سلطانه سبحانه وتعالى.

فبعد بيانه سبحانه لشأن استوائه على العرش الذي لا يراه الإنسان ينتقل إلى محسوس مشاهد آخر ﴿ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ﴾ ليعيد الإنسان بما يستدل به من المشاهد المحسوس إلى غير المشاهد من عظمة الله تعالى وعظمة العرش ﴿ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ﴾ فترون الشمس والقمر، بحركتهما، وتعاقبهما، وعظمتهما، من غير فتور ولا خلل، بل ومُطَوَّعَتين في خضوع وقهر لمراد الله تعالى، فإن الذي سخر الشمس والقمر هو الذي رفع السماء بغير عمد ترونها، وهو رب العرش العظيم الذي لا ترونه بأعينكم، ولكن تصدقون به قياساً على عظمة مخلوقاته، أفلا تؤمنون؟ فإن الشمس والقمر التي هي أظهر الكواكب تسير بدقة وإعجاز ﴿ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ فكل منهما يسير جرياً منتظماً، فإن حركة الشمس وحركة القمر تتعاقب في سيرها

من غير خلل إلى أن يحين الوقت المحدد لانتهائها، فلا تتأخر ولا تتقدم، وكلمة التسخير، تفيد التطويع والإخضاع والقهر، فتسير منقاده لتحقيق مصالح خلقه، وقد ذللها سبحانه وتعالى لتحقيق منافع عباده الكثيرة المتعددة، فيعرفون بهما الليل والنهار، والحساب، والأوقات، ويستضيئون بنورهما، وغير ذلك من المنافع. بل وكل ذلك المسير الدقيق فإنه إلى وقت محدد ومعلوم، وهو فناء الدنيا يوم القيامة، والتي لا يعلم وقتها إلا الله جَلَّ في علاه.

ثم ينتقل البيان الكريم من الرحمن الرحيم في تدرج بياني عظيم إلى عظمة تدبيره سبحانه وتعالى ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ فإن الذي رفع السماوات بغير عمد ترونها، ثم استوى على العرش، وسخر الشمس والقمر، فإنه هو الذي يدبر ويقضي كل ذلك من غير شريك، ولا مُعين سبحانه وتعالى. وجملة ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ تستوفي قضيتين: الأولى: ﴿يُدَبِّرُ﴾ أي: يُصَرِّف الشيء كيف يشاء سبحانه وتعالى، بقهره وسلطانه وقوته وقدرته التي وسعت كل شيء، فتضمنت كمال التصرف،، وكمال التصريف. وأما الثانية: متعلقة بالأمر ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ الذي يشمل أمور العالم العلوي والسفلي بأكمله، ومنها أمور الإنسان، فيرزق ويُفْقِر، ويعطي ويمنع، ويُمرِض ويعافي، ويعز ويذل، ويخفض ويرفع، وأرسل الرسل، وأجرى الأرزاق، وينزل الغيث، وينبت الزرع، فيحصده الإنسان، وقد يجعله هشيماً قبل حصاده، ويُجري الفيضانات والسيول، ويحي ويميت، ويتوفى الأنفس، ولا يستعصي منها شيء، ويدبر كل شيء أحسن وأنظم تدبير، وفق حكمته وإرادته.

وكذلك من كمال قدرته سبحانه وتعالى وعظيم سلطانه أنه ﴿يُفَصِّلُ ٱلْأَيَـٰتِ﴾ أي: يُفَصِّل الآيات ببيانها في أوضح وأعظم بيان وتفصيل، فَيُظهر آياته جميعاً بأحسن وأوضح بيان وأبلغه، سواء التي في الكتاب، أو الآيات الأخرى الكونية، الدالة على كمال قدرته وتدبيره، وألوهيته وربوبيته، والتي منها ما سبق بيانه من رفع السماء، وتسخير الشمس والقمر، وسيرهما في تعاقب عجيب ودقيق، فلا يسبق أحدهما الآخر، ولا يتأخر عن موعده طرفة عين. كل ذلك لهدف وغاية، متعلقة بك أيها الإنسان، لعلك بهذه الآيات تؤمن بلقاء الله تعالى كما أخبرك ﴿لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ لعلكم بهذه الآيات الواضحات البائنات توقنون بالله تعالى، وبما أرسل من الرسل والكتب، فتؤمنون بالله وملائكته وكتبه ورسله، وبالبعث بعد الموت، والحساب والجزاء، والجنة والنار، فتعملون بما يحقق لكم الخير، ويصرف عنكم الشر والعذاب. فإن من رحمة ربكم تبارك وتعالى أنه نوع في الآيات، سواء المشاهدة أو المقروءة والمسموعة. فلله الحمد والشكر.

فبعد أن ذكر الله تعالى الآيات العلوية من السماء والشمس والقمر، يستمر البيان في لفت الانتباه للمزيد من الآيات السفلية العظيمة ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ﴾ أي: بسطها ووسعها، فجاءت ممدودة مبسوطة للإنسان، إذ لو كانت خلاف ذلك لما استطاع أن يعيش فيها الإنسان، بأن يزرع، ويسير، ويتنقل بين أطرافها.

وفي هذا شد الانتباه نحو ما قد يفوت الانتباه إليه نتيجة المعايشة، مما يفيد أهمية التنبيه والتنويه عند التعليم والدعوة والإرشاد إلى ما يغفل عنه الإنسان، نتيجة كثرة المعايشة والمشاهدة للشيء.

ثم يتدرج البيان إلى ما جعل فيها سبحانه وتعالى من المخلوقات العظيمة العجيبة ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۡهَٰرٗاۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فبدأ تبارك وتعالى بالجبال ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ﴾ وسماها الله تعالى بعلتها وقوتها ﴿رَوَٰسِيَ﴾ ولم يذكرها باسم الجبال، ليلفت انتباه الإنسان إلى علة وجودها ووظيفتها وقوتها، ليتبين للإنسان أن من وظائف الجبال أنها قوة لتثبيت الأرض وترسيتها عن الحركة في هذا الفضاء العميق، الذي لا يثبت فيه الشيء إلا بإيجاد أسباب الثبات منه تبارك وتعالى، فأصبحت الأرض مستقرة للإنسان بهذه الجبال. فمن الذي جعل هذا التناسق، وأوجد السبب لاستقرار الأرض، وجعلها ممدودة مبسوطة؟ أليس في هذا آيات ومعجزات على أن لهذا الكون رب قد خلقه، وسخره، ودَبَّرَهُ أحسن تدبير؟ كما يفيد هذا أن الله تعالى قد جعل لكل شيء سبباً، وهو قادر بأن لا تكون للأسباب قدرة، ولا حاجة لها، ولكن ليتعلم الإنسان قوة وعظمة ودقة تدبير الله تعالى.

ثم يذكر عَزَّ في علاه من آياته الدالة على ربوبيته وألوهيته ووحدانيته شق الأنهار في الأرض ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۡهَٰرٗا﴾ فخلق تبارك وتعالى الأنهار المتدفقة بالمياه، ليحرث ويزرع هذا الإنسان، ويشرب ويسقي زرعه وأنعامه، فمن الذي أوجد له ما يحتاجه ليعيش على الأرض بكل يُسر وسهولة؟ فأوجد مقابل الحاجة، ما يحتاج إليه، وأوجد الشيء وأسبابه، وأسباب ما تقوم به الحياة. وفي ذلك لفت الانتباه إلى تأمل المخلوقات، وتأمل الأسباب، والعلاقة بينها وبين حركة الكون، وحركة الحياة. كما أن في ذكر الأنهار لفت الانتباه إلى تدفق المياه، وإلى مجاريها التي تجري فيها، وإلى ما أودعه فيها سبحانه وتعالى، وإلى ما يستخرجه الإنسان منها، وإلى ما يسير وينتقل به فيها من خلال مجاريها، وكيف تجري المياه فيها من غير انقطاع، فلا تنضب ولا تتوقف، ثم لتصب في البحار التي لا تمتلئ ولا تفيض من كثرة تدفق مياه الأنهار فيها، ولا يتغير طعم البحار بمياه الأنهار. ومن تدبيره عَزَّ في علاه أن مياه الأنهار تجري إلى البحار حتى لا تفيض وتغرق الأرض والإنسان والحيوان والنبات بتدفقها المنهمر الذي لا ينقطع. أفلا يدل ذلك على عظمة الخلق تبارك وتعالى؟ وأنه رب هذا الكون، ومدبره، وهو الذي يجب أن يعبده العباد، ولا يشركوا به شيئاً.

ثم يلفتُ اللهُ تبارك وتعالى الانتباه إلى ما ينتج عن هذه الأسباب التي هي الأرض والأنهار من الثمار ﴿وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ وقد ذكر تعالى الناتج من الأشجار، وهي الثمار، دون ذكره سبحانه وتعالى للأشجار، لأن الثمار هي المقصد في هذا البيان، ولأن الثمار دلالة على الأشجار، فمن بلاغة الكلام في الوصف أن ترك ما لا حاجة لذكره، فأغنى غيره عنه، ولتدل النتيجة على الأصل.

ثم من دقائق الوصف قوله تعالى ﴿وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ﴾ فمن كل الثمرات زوجين، أي: فمن كل شكل صنفان، وأكد الزوجين بالإثنين. قال الإمام القرطبي رحمه الله تعالى وهما: كالحلو والحامض، والرطب واليابس، والأبيض والأسود، والصغير والكبير[١] وقال ابن الجوزي رحمه الله تعالى: وقال المفسرون: ويعني بالزوجين: الحلو والحامض، والعذب والملح، والأبيض والأسود[٢] ومن هذا التنوع في الصنف الواحد ما يدل على أن الثمار لمن تأملها آية إعجاز، تدل على عظمة الخالق تبارك وتعالى، وتدل على كرمه، وجوده وإحسانه، وتدل على دقة خلقه وعظيم قدرته عَزَّ وجل. ومن دقائق البيان أن كلمة زوجين اثنين جمعت تنوع المذاق، وتنوع الحجم، وتنوع اللون، وتنوع الشكل بتغير الثمرة حين نضجها من الرطوبة والليونة، إلى اليبوسة حين مرور الوقت عليها.

ثم ينتقل البيان في تدرج عظيم إلى ما يراه ويشعر به الإنسان دون أن تكون له قدرة على تغييره أو تعديله أو التصرف فيه، وهي آية الليل والنهار ﴿يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ﴾ فإن الله تعالى جعل كلاً من الليل والنهار يطلب الآخر طلباً حثيثاً، فهذا الليل يطلب النهار فيغشاه بظلامه، وهذا النهار يطلب الليل فيدركه بنوره، ليكشف ظلامه. فأبانت كلمة ﴿يُغۡشِي﴾ أثر ظهور الليل بظلامه على نور النهار، وأثر ظهور نور النهار على ظلمة الليل، فمن الذي خلق ودبر هذا؟ وجعلهما يتعاقبان في تأثير قوي بلا خلل ولا ملل، أليس هو الله تعالى الذي خلق لكم هذه الخلائق؟ فاستوجب منكم توحيده وعبادته وحده لا شريك له. ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾ إن في تلك الآيات الكونية العظيمة لدلالات بينات وكافيات للناظرين المتأملين المتفكرين المعتبرين لتحقيق الإيمان في قلوبهم.

ومن جميل البيان ودقته أن الله تعالى أشار إلى أن تلك الآيات كافية ليس للفرد وحده، بل للقوم ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾ بأن يؤمنوا جميعاً، فلقوتها أنه لا يختلف عليها القوم، لأن لفظ القوم يدل على الكثرة، والكثرة من الناس يحصل بينهم التباين في الرأي، ولكن هذه الآيات لقوة حجتها فلا يختلف فيها القوم، بل يتحقق فيهم التوافق إذا كانوا من أهل التأمل والتدبر والتفكر. ويفيد انسياق الكثرة إلى قوة الآيات التي يجب أن ينساق إليها القوم، إيماناً وتصديقاً، وليس تأثيرها محدود الأثر، فيكون على أفراد من جملة القوم، وذلك لقوة حجتها. فإنه قرآن معجز حتى في ألفاظه وقوة بيانه، وغزارة دلالة ألفاظه.

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٨٥/٩)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٢٢٥/٤)

ويستمر البيان الكريم في لفت الانتباه وشد العقول إلى عظيم خلق الله تعالى ﴿ وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلْأُكُلِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ فبدأ تبارك وتعالى ببيان تفاصيل مكونات الأرض بعد أن ذكرها جملة في امتدادها وسعتها ﴿ وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ ﴾ وفي مكونات الأرض ﴿ قِطَعٌ ﴾ أي: أجزاء من حيث مكوناتها ﴿ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ ﴾ متقاربات، ومتلاصقات، ومع هذا فهي مختلفة في طبيعتها، فمع تجاورها إلا أنها مختلفة، فمنها السبخة التي لا تنبت شيئاً، ومنها الطيبة العذبة التي تُنبت ما ينتفع الناس به، ويدخل ضمن دلالة المعنى ما ذكره ابن كثير رحمه الله تعالى: ألوان بقاع الأرض، فهذه تربة بيضاء، وهذه حمراء، وهذه صفراء، وهذه سمراء، وهذه سهلة، وهذه مرتفعة، وهذه وعرة[١] وهذه أرض حجرية، وهذه طينية، وهذه رملية، وجميعها متجاورة متلاصقة، ومن جميعها تتكون الأرض، ومن جميعها تستفيدون. أفلا يدل هذا على عظيم تكوينها؟ فيدل على عظيم وعظمة خالقها سبحانه وتعالى. بل وتشمل مساحة دلالة النص كما ذكر القرطبي رحمه الله تعالى: المتجاورات المدن وما كان عامراً، وغير متجاورات الصحاري، وما كان غير عامر[٢] وهذا تفصيل يجمع الألوان من الأرض، وأنواع مكوناتها الطبيعية التي خلقها الله تعالى أصلاً، وشملت الدلالة أيضاً ما كان معموراً من الإنسان، وما كان متروكاً منه، فهي آيات عظيمة من حيث التكوين، ومن حيث الإعجاز البياني الذي استوعب الاختلاف في كلمتين: الأولى: منطوقة مذكورة، وهي ﴿ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ ﴾ والثانية: بالمفهوم، وهي قطع غير متجاورات، والذي دل عليه المنطوق.

ثم يذكر سبحانه وتعالى بعد بيان مكونات سطح الأرض ما يتعلق بالإنبات ﴿ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ ﴾ فمع تقارب وتلاصق هذه الأنواع من الأرض إلا أن منها ما تنبت فيه الزروع. وقد ابتدأ البيان الكريم بفاكهة العنب، فهناك البساتين والمزارع من الأعناب. ثم ذكر تبارك وتعالى العموم بعد الخصوص، فقال جَلَّ جلاله ﴿ وَزَرْعٌ ﴾ ليشمل كل ما يزرع في الأرض، فأرض تستوعب زراعة الأعشاب والخضروات، وأرض تستوعب الأشجار الباسقات، وأرض تستوعب الحشائش، وأرض تستوعب الجميع.

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٢/٥١٨)

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٩/١٨٥)

ثم خص تبارك وتعالى النخيل بالذكر، مع خصوص التفريع عن أصل المنبت ﴿وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ﴾ ذكر الزجاج رحمه الله تعالى أن الصنوان: هو بأن يكون الأصل للنخلة واحداً، ويتفرع منه النخلتان والثلاث والأربع، وكذلك قال المفسرون: الصنوان: النخل المجتمع وأصله واحد، وغير صنوان: المتفرق[١]

ثم يتدرج البيان إلى لفت الانتباه نحو تعدد وتنوع مذاقها مع أن الماء الذي تُسقى منه واحد ﴿يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ﴾ ومع هذا يُفاضل بينها الإنسان في المأكل لاختلاف مذاقها ﴿يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلْأُكُلِ﴾ فيفضل بعضها على بعض في الطعوم، بل ويندرج تحت كل طعم درجات متفاوتة في حلاوته وحموضته، وفيه كذلك تفاضل بين تلك البساتين من الأعناب، والزروع، والنحيل، وكل ذلك بتقدير الله تعالى. فبالرغم من أن تلك النباتات تُسقى بماء واحد إلا أن الله تعالى جعلها تتباين في التفضيل حين الأكل.

وبالرغم من أن التباين حاصل من أصل منتوج الثمار إلا أن من دقائق البيان أن جعل التفاضل ليس فيما تعطيه تلك الثمار فقط، بل إن حصول التفاضل أيضاً من جراء الأكل والاستطعام ﴿وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلْأُكُلِ﴾ فالتفضيل بحسب تذوق الإنسان واختلافهم في ذلك. فهو تفضيل تذوق في الأكل، وتبعاً لذلك فكل يأخذ ويأكل بحسب درجة الترتيب الحسي في التذوق. الذي يتباين بين المتذوقين، وهذه آية عظيمة، بل آيات باهرات، حتى فيما يتعلق بتباين الحس من الذوق عند الإنسان، لاختلاف درجة استحسانهم فيما هو مالح بدرجاته، وفيما هو حلو بدرجاته ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ إن في هذا الخلق والإنبات واختلاف المطاعم في مذاقها لآيات وحجج وبراهين للأقوام التي تعقل وتتدبر وتفكر، فإن في كمال الأدلة ما يبين ويؤكد بأن الذي خلق هذه المخلوقات بهذه الدقة هو الله سبحانه وتعالى، وأن الذي يجب على العباد هو عبادته عَزَّ وجل وإفراده بالعبادة، وطاعته، وشكره إلى أقصى ما يكون الشكر، بالقلب واللسان والامتثال بالطاعة.

﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِيٓ أَعْنَاقِهِمْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝٥ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٤/٢٢٥-٢٢٦)

بِٱلسَّيِّئَةِ قَبۡلَ ٱلۡحَسَنَةِ وَقَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِمُ ٱلۡمَثُلَٰتُۗ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغۡفِرَةٖ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلۡمِهِمۡۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿٦﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦٓۗ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٞۖ وَلِكُلِّ قَوۡمٍ هَادٍ ﴿٧﴾ ﴾

بعد بيان شواهد الوحدانية بدلائل الاستدلال، وحجج البيان من الله الكبير المتعال، يتجه الخطاب إلى النبي صلى الله عليه وسلم، بأسلوب التعجب الاستنكاري لحال أولئك المكذبين أمام تلك الآيات الباهرات التي تقدم تفصيلها، فإن حال المنكرين مثار استغراب وتعجب ﴿ وَإِن تَعۡجَبۡ فَعَجَبٞ قَوۡلُهُمۡ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدٍۗ ﴾ فإن تعجب أيها النبي من كفرهم بالله تعالى، وإنكارهم لنبوتك مع قوة الحجج والبراهين على وحدانية الله تعالى، فإن الأعجب من ذلك إنكارهم للبعث ﴿ فَعَجَبٞ قَوۡلُهُمۡ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدٍۗ ﴾ فإن إنكارهم البعث بعد الموت هو أعجب من إنكارهم نبوتك مع الحجج والبراهين التي أتيتهم بها، وكذلك كفرهم بالله تعالى مع ما تم بيانه لهم من الآيات الكونية العظيمة الباهرة، والقاطعة بأن الله تعالى واحد أحد، خالق كل شيء ومالكه، وأنه لا معبود ولا مربوب بحق سواه سبحانه وتعالى. فإن الذي خلق هذا الكون، وأوجدهم من العدم قادر على إعادتهم بعد الموت.

وأفاد قوله تعالى ﴿ فَعَجَبٞ قَوۡلُهُمۡ ﴾ تهويل وتعظيم إنكارهم للبعث بعد الموت. كما ورد إنكارهم للبعث بعد الموت بصيغة الإنكار المؤكد لنفي البعث ﴿ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدٍۗ ﴾ فاستفهامهم هو استفهام استنكار، وقطع جازم باستبعاد إعادة الحياة بعد الموت، واحتجوا باستحالة البعث والعودة بعد الموت بما ستؤول إليه أجسامهم في القبور، من تحللها واختلاطها بالتراب، ثم انعدامها. قال الشوكاني رحمه الله تعالى: والاستفهام منهم للإنكار المفيد لكمال الاستبعاد، وتقديم الظرف في قوله ﴿ لَفِي خَلۡقٖ ﴾ لتأكيد الإنكار بالبعث، وكذلك تكرير الهمزة في قوله ﴿ أَءِنَّا ﴾[1] مما يبين أن العناد والاستكبار قد أخذهم عن التفكر والتأمل، حتى أنهم لم يرعوا سمعهم لما سمعوا، ولم يطلقوا أبصارهم في آيات الله تعالى الكونية للتأمل والتدبر. مما يبين أن الاستكبار يقود إلى عدم الالتفات للحقيقة، بل يقود فكر صاحبه إلى أن يتمحور وينزوي في كيف يصد من يخاطبه ويحاجه بالحق، لينكر ما جاء به من البينات والبراهين والهدى. كما يفيد ذلك ويُظهر أهمية التأمل والتدبر في آيات الله الكونية، فإنها تقود العاقل إلى الحقائق التي أظهرها القرآن العظيم.

---

(١) الشوكاني، فتح القدير (٦٧/٣)

ثم يخبر الله تعالى أنه إزاء عنادهم، وكفرهم بالحق فإنه قد حكم عليهم بثلاثة أحكام، الأول: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ﴾ فهؤلاء المنكرون للبعث بعد الموت، جاحدون بقدرته تبارك وتعالى على إعادتهم بعد الموت، فتحقق فيهم الكفر بربهم عَزَّ وجل. فقد استكملوا الكفر واستوفوه، لأنه يتبع الكفر بالبعث الكفر بالحساب، والجزاء، والجنة والنار، وبالتالي كفروا بالأنبياء، وتبعاً لذلك كفروا بما جاءهم من الله تعالى بواسطة الأنبياء. والحكم الثاني: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡأَغۡلَٰلُ فِيٓ أَعۡنَاقِهِمۡ﴾ فهؤلاء تكون القيود من السلاسل في أعناقهم، يسحبون بها يوم القيامة. والحكم الثالث: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ فأولئك محكوم عليهم بالعذاب في النار، ومصاحبتهم لها مصاحبة دائمة لا تنقطع، وماكثون فيها بالخلود المؤبد، فلا يخرجون منها أبداً. اللهم أجرنا من النار.

ثم يبين الله تعالى المزيد من غرائب أحوال هؤلاء المكذبين المكابرين والمعاندين ﴿وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبۡلَ ٱلۡحَسَنَةِ وَقَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِمُ ٱلۡمَثُلَٰتُۗ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغۡفِرَةٖ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلۡمِهِمۡۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ فإن من استخفافهم واستكبارهم وعنادهم بعد إنكارهم للبعث بعد الموت، أنهم يستخفون بعذاب الدنيا، ووقوعه بهم ﴿وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبۡلَ ٱلۡحَسَنَةِ﴾ فيستعجلونك أيها الرسول صلى الله عليه وسلم بوقوع العقاب، أي العذاب الدنيوي قبل عذاب الآخرة، وبالشر قبل الخير. وقد أخبر الله تعالى بسؤالهم ذلك في أكثر من سورة، ومن ذلك قولهم كما جاء في سورة الأنفال ﴿وَإِذۡ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلۡحَقَّ مِنۡ عِندِكَ فَأَمۡطِرۡ عَلَيۡنَا حِجَارَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئۡتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ٣٢﴾ وهذا من فرط إنكارهم وتكذيبهم بأن طلبوا العذاب ﴿قَبۡلَ ٱلۡحَسَنَةِ﴾ قبل العافية، وقبل يوم القيامة، فعن ابن عباس رضي الله عنها: العذاب قبل العافية، وعن قتادة رضي الله عنه: بالشر قبل الخير[١]

ومما يثير التعجب من حالهم ومسلكهم الذي هو استعجالهم واستخفافهم بالعذاب بالرغم مما أصاب من سبقهم من الأمم قبلهم من العذاب الشديد، فكان الأولى بهم هو الاتعاظ ﴿وَقَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِمُ

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٢٢٧/٤)

ٱلۡمَثُلَٰتُ ﴾ فقد سبقت ومضت من قبل حالهم هذا عقوبات لغيرهم، وهي ﴿ٱلۡمَثُلَٰتُ ﴾ أي: عقوبات أمثالهم من المكذبين، فكان الأولى بهم الاعتبار بمن قبلهم.

ثم يخبر الله تعالى عن عظيم حلمه ومغفرته للناس على عظمة ظلمهم ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغۡفِرَةٖ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلۡمِهِمۡ ﴾ فعلى شدة وقوع الظلم من الناس على أنفسهم بالكفر والعناد إلا أن الله تعالى مع هذه الحال يغفر لمن رجع وتاب، فبالرغم من أن حالهم هو حال من لا تُقبل منه التوبة، لتطاولهم وفرط عنادهم وكفرهم، واستعجالهم العقوبة، إلا أن الله تعالى يعاملهم بحلمه ورحمته ومغفرته إن تابوا عن كفرهم. مما يبين أنه لولا رحمة الله تعالى لعجل للكافرين وللمذنبين ما يستحقون من العذاب، ولكنه هو الغفور الرحيم، ومع ذلك فإنه عَزَّ وجل شديد العقاب لمن تمادى ولم يرجع إليه ويتوب ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴾ وهذا من كمال عدله سبحانه وتعالى، بأن لا يساوي بين المطيع والعاصي، فإن عذابه شديد إذا وقع بالكافرين، كما أن مغفرته ورحمته عظيمة لمن تاب واستقام.

ثم يخبر الله تعالى بالمزيد عن أوجه كفر المتادين في كفرهم عناداً واستكباراً ﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦٓ ﴾ فيقول هؤلاء الذين تمادوا في الكفر، المستعجلين بالسيئة من العذاب قبل الحسنة، المنكرين للبعث بعد الموت: هَلاَّ أُنزل على هذا النبي آية غير التي جاء بها. مما يدل على الإمعان في التمادي، ورغبتهم في آية محددة، يختارونها، أو قد اختاروها. كقولهم: اجعل لنا الصفا ذهباً، وكما قال تعالى عنهم في سورة هود ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٞۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٌ ١٢ ﴾ وهم يكذبون فيما يطلبون ويقولون، فإن فيما أنزل الله تعالى على نبيه صلى الله عليه وسلم من الآيات كافية في قوة حجيتها، وأولها برهاناً وحجة وآية، هو القرآن الكريم، وهم أهل اللغة التي تحداهم الله تعالى بأن يأتوا بمثله، ولو بسورة واحدة. ومن الآيات الكونية انشقاق القمر، وإخباره بعيرهم في حادثة الإسراء والمعراج، وحنين الجذع.

ثم يخبر الله تعالى نبيه محمد صلى الله عليه وسلم بحدود مسؤوليته في الهداية، حتى لا يشق عليه أمر عناد الكافرين من قومه، ومن غيرهم ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٞ﴾ فمهمتك أيها النبي صلى الله عليه وسلم تقتصر على الإنذار بالعقوبة في الدنيا وفي الآخرة لمن كذب وكفر، كما أن في ذلك بيان لهم: من أن إنزال الآيات ليست للنبي محمد صلى الله عليه وسلم، بل لله سبحانه وتعالى، وإنما محمد هو رسول لله تعالى بما أرسله الله عَزَّ وجل به، وأن الله عَزَّ وجل هو الذي ينزل الآيات بما يشاء. ثم يُخبر الله تعالى ويبين قاعدة عظيمة، تسري على كل

قوم ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ قال ابن جرير رحمه الله تعالى: ولكل قوم إمام يأتمون به، وهاد يتقدمهم، إما إلى خير، وإما إلى شر[١] مما يبين أهمية وأثر القيادة، وأن الطبيعة البشرية التي جعلها الله تعالى فيهم تقتضي أن يكون لكل قوم قائد يقتدون به، فإما أن يكون هذا القائد في الخير، أو أن يكون هذا القائد في الشر. مما يبين أن سنة الله تعالى اقتضت إزاء هذه القاعدة الربانية أن تكون أيها النبي هاد لهذه الأمة، تهديها وترشدها إلى الحق، وقد اختارك الله تعالى لها. وأن هؤلاء المشركين المعاندين إنما يسيرون خلف رؤسائهم الذين يدعونهم للكفر. مما يعطي ذلك الأهمية المنوطة بالقائد، وأن عليه أن يدرك أنه يمثل القدوة لمن يقتدون به، وعليه أن يحذر من كل مسلك يأخذهم عن الطريق الصحيح. وفيه كذلك أن للقائد مسؤولية محددة كقوله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ﴾ فمهمتك هي الإنذار، وليس تنزيل الآيات، ولا تحقيق الهداية، وإنما تسعى بأسبابها.

ومن غزارة دلالة قوله تعالى ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ أي: نبي يدعوهم إلى الله تعالى[٢] فإنه لكل قوم من الأقوام السابقة رسول أرسله الله تعالى لهم، لينذرهم، فلست أنت أول المرسلين، وليسوا هم أول الأقوام التي أرسل الله تعالى إليهم رسولاً، ولست بدعاً عليهم، وما كان لأحد من قبل أن يقترح آيات بعينها، بل لله تعالى الحكمة فيما يُرْسِل بالآيات. فأعطى قوله تعالى ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ رحابة في البيان على الرغم من أنها من ثلاث كلمات، مما يدل على عظيم الإعجاز البياني في القرآن الكريم.

﴿ ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ۖ وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾
عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ﴿٩﴾ سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ
هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ﴿١٠﴾ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ
ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم
مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴿١١﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ
﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ
وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴿١٣﴾ لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٤٣٨/١٣)
(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٨٨/٩)

بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ (١٤) وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ (١٥) ﴾

ثم ينتقل التوجيه الرباني العظيم إلى بيان المزيد من دقة قدرته وعظيم علمه سبحانه وتعالى، الذي ينفي به ما قد يتوهمون من العجز عن الإتيان بما يطلبون ويقترحون. فيرد الله تعالى انتباههم وعقولهم إلى ما هو أعظم مما يطلبون ويقترحون من الآيات، فيرشدهم إلى تأمل غزارة علمه وإحاطته وتدبيره لأدق ما يجهلونه عن أنفسهم ﴿ ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُۖ وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴾ فإن من عظيم الآيات والحجج أن الله تعالى يعلم ما أنتم عاجزون عن معرفته عن أنفسكم، مما تحمله أرحام نسائكم. فتجهلونه تمام الجهالة، في حين أن الله تعالى يعلمه، لأنه هو الذي قدره عَزَّ وجل وخلقه، فاجتمع في ذلك القدرة والعلم ﴿ ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ ﴾ سواء من ذكر أو أنثى، وكذلك من حيث العدد، اثنان أو واحد، أو أكثر، وإن كان أكثر فهو يعلم أهم إناث كلهم، أم ذكور جميعهم، أو إناث وذكور، وكذلك إن كان الحمل فيه نقص في خلقته، أو زيادة، وصحيح أو عليل، وسعيد أم شقي، وغير ذلك من دقائق ما تحمله أرحام النساء ﴿ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ﴾ الغيض هو النقص، أي ما تُنقصه الأرحام، بالوضع لأقل من تسعة أشهر ﴿ وَمَا تَزْدَادُ ﴾ بالوضع لأكثر من تسعة أشهر. رواه الضحاك عن ابن عباس، وبه قال سعيد بن جبير، ومقاتل وابن قتيبة والزجاج، والمعنى الثاني: ما تغيظ بالسقط، وما تزداد بالولد التام، والمعنى الثالث: ما تغيض بإراقة الدم في الحمل حتى يتضاءل الولد، وما تزداد، إذا أمسكت الدم، فيعظم الولد[١] قال الشوكاني رحمه الله تعالى: فقيل: المراد نقص خِلْقَة الحمل وزيادته، كنقص أصبع، أو زيادتها. وقيل: أن المراد نقص مدة الحمل عن تسعة أشهر. فهي تحتمل الثلاثة الوجوه المتقدمة فيما تحمل كل أنثى[٢] وهذا من غزارة الإعجاز البياني، حيث استوفت ثلاث كلمات جميع الحالات التي يكون عليها حَمْلُ الأرحام. فسبحان الله العظيم الذي جعل الإعجاز في البيان آية من آيات كتابه العزيز.

ثم يؤكد سبحانه وتعالى عظمته وجلاله بتقديره لجميع الأشياء ﴿ وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴾ فكل شيء من مخاليقه بأجل، قد قدره الله تعالى، فإن الأشياء سائرة على قَدَرِ الذي قَدَّرَهُ تبارك وتعالى. فقد عَلِمَ سبحانه وتعالى بعلمه السابق ما سيكون من خلقه قبل أن يخلق الخلائق، كالأجل والرزق، والسعادة

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٢٢٩/٤)

(٢) الشوكاني، فتح القدير (٦٨/٣)

والشقاء، إلى غير ذلك مما سيكون قبل أن يكون. فلا يتقدم شيء ولا يتأخر، ولا يزيد ولا ينقص إلا بأجل مُقَدَّر عند الله تعالى.

ومن عظمته جَلَّ في علاه أنه ﴿ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلۡكَبِيرُ ٱلۡمُتَعَالِ ﴾ فإن الله تعالى عالم بما غاب عن خلقه، مما لا تراه أبصارهم، ولا تسمعه آذانهم، ولا تدركه حواسهم ﴿ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ﴾ وكذلك عالم بكل ما تشهده أبصارهم، وتسمعه آذانهم، وتدركه عقولهم، لأنه الخالق الذي خلق كل شيء ﴿ ٱلۡكَبِيرُ ﴾ العظيم الذي كل شيء صغير حقير عنده، لا قوة ولا قدرة له أمام قدرة وعظمة الله تعالى ﴿ ٱلۡمُتَعَالِ ﴾ المستعلي على كل شيء، فهو العالي فوق كل خلقه، والمتنزه بعلوه عن صفات المخلوقين، والمتعالي عمَّا يقوله المشركون، فهو عظيم القدر، وكل كبير من المخلوقات دونه عَزَّ في علاه، وأسفل منه، وتحت سلطانه وقهره. فهي صفات يستعظم بها سبحانه وتعالى علواً وقدرة وسلطاناً وإحاطة وتدبيراً وقهراً لخلقه، فاستحق أن لا يُعبد غيره، وأن يُوحدُه عِبادُه في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته عَزَّ وجل. مما يدل على افتقار خلقه له جَلَّ في علاه، وأن واجبهم طاعته، وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم.

ثم ينتقل الخطاب مباشرة إلى ببيان دقة علمه سبحانه وتعالى بعباده أجمعين ﴿ سَوَآءٞ مِّنكُم مَّنۡ أَسَرَّ ٱلۡقَوۡلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنۡ هُوَ مُسۡتَخۡفِۭ بِٱلَّيۡلِ وَسَارِبُۢ بِٱلنَّهَارِ ﴾ فبعد أن أوضح تبارك وتعالى قدرته، وعظيم صفاته جَلَّ جلاله خاطب عباده مباشرة ﴿ سَوَآءٞ مِّنكُم ﴾ أياً كان منكم، ليشمل المؤمن والكافر وفي جميع الأحوال ﴿ سَوَآءٞ مِّنكُم مَّنۡ أَسَرَّ ٱلۡقَوۡلَ ﴾ فأي منكم أسر قولاً، وتكتم به عن غيره، فأضمره في قلبه ولم يخرجه، وكذلك ﴿ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ ﴾ أي: من أعلن قوله، وأخرجه من السر إلى الجهر ﴿ وَمَنۡ هُوَ مُسۡتَخۡفِۭ بِٱلَّيۡلِ ﴾ ومن تخفى بأمر في ظلمة الليل حتى لا يراه أحد، فتستر وتوارى به في ظلمته ﴿ وَسَارِبُۢ بِٱلنَّهَارِ ﴾ ومن هو ظاهر بالنهار في ضوئه بشأنه من القول والعمل، فإنه لا يخفى كل ذلك على الله تعالى، فإن جميع تلك الحالات عنده سواء، لا تختلف عليه كما تختلف عليكم، ولا يخفى عليه منها شيء، كما تخفى وتستتر عليكم. ليدرك العبد أنه سبحانه وتعالى عالم الغيب والشهادة.

وفي هذا البيان تفسير وإيضاح للعباد معنى قوله تعالى ﴿ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ﴾ فهو تفسير دقيق وعميق في دلالة بيانه، الأمر الذي يحقق الطمأنينة للمؤمن، والتهديد للكافر، فالمؤمن يزداد بعلم الله تعالى

طمأنينة، وذلك لتحقق معرفة المؤمن بأن الله سبحانه وتعالى عالم بتفاصيل ودقائق حاله، سواء ما خفي منها أو ما ظهر. فيلحق بهذا العلم عن ربه تبارك وتعالى طمأنينة النفس، لإدراكه أن الله تعالى عالم بحاله، وقادر على تدبير أمره، ومنها ترابط العلاقة بين حاجاته وقدراته، سواء حين خوفه وحاجته لأمنه واستقراره، وحال فقره وحاجته بأن يغنيه ويعطيه، وفي مرضه وحاجته أن يشفيه، وفي ضعفه ليحميه ويقويه، وكذلك علمه سبحانه وتعالى لعطاء العبد، وصدقته وعبادته ليلاً ونهاراً، وسراً وجهاراً، وبالتالي يكون تعامل العبد مع ربه تبارك وتعالى وفق هذا العلم العظيم بصفاته تبارك وتعالى في جميع شؤونه. ومن وجه آخر هو إعلام للكافر بحقيقة علم الله تعالى، وقدرته، وأنه مُطَّلِعٌ على ما يُسرّون وما يعلنون من عداء وخبث ومكائد لرسوله صلى الله عليه وسلم، أو للمؤمنين، أو لدين الله تعالى، أو لأي أمر كان منهم، فإنه قد يفضحهم به، وفي ذلك تهديد وإنذار وترهيب لهم، وترغيب لهم في أن يُوَحِّدُوه ويُطيعوه بعد إخبارهم وإعلامهم بكمال صفاته وجلالة عظمته سبحانه وتعالى.

ثم يخبر الله تعالى بالمزيد من دقة تدبيره لعباده، فإن لهؤلاء العباد حفظة من الملائكة ﴿ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ ﴾ فللعبد معقبات من الملائكة، يتعاقبون عليه، فإن له حرس بالليل، وحرس بالنهار، يحفظونه من الأسواء، والحادثات. كما يتعاقب ملائكة آخرون لحفظ الأعمال، من خير أو شر، فإنهم ملائكة بالليل، وملائكة بالنهار، فاثنان يكتبان، أحدهما عن اليمين وآخر عن الشمال، فيكتبان أعمال العبد، فأما الذي عن اليمين فيكتب الحسنات، والذي عن الشمال يكتب السيئات، وملكان آخران يحفظانه ويحرسانه، أحدهما من ورائه، والآخر من أمامه، فهو بين أربعة ملائكة بالنهار، وأربعة آخرين بالليل[١] كاتبان وحافظان بالليل، وكاتبان وحافظان بالنهار. فسبحان الله العظيم، الذي اعتنى بعباده هذه العناية العظيمة، فكم أبعد الله تعالى هذا العبد من شر أمامه أو خلفه، أو تحته، أو فوقه، أو بحركة من جسده، يميناً أو شمالاً، أو إلى الأمام، أو الخلف، أو بغير ذلك، فأبعده الله تعالى بها عن مقتله، أو مصيبة عظيمة، أو أذى كان أمامه، وبين يديه، أو كان تحت أقدامه، فيشعر بها العبد بعد فواته عن ذلك المكروه، حتى أنه ليتعجب من ذلك الخلاص، كيف حاد عنه، دون شعور منه، أو بسبب منه، بل يشعر أنه كان في غفلة من أمره.

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٢/٥٢١-٥٢٢)

فلو تبصر الإنسان في حاله، أو حال ما يحدث لغيره أمامه لأدرك ذلك تماماً ﴿يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ فإن حفظ الملائكة للعبد مما أمرهم الله تعالى به آية واضحة لمن تأملها. فإذا جاء قدر الله تعالى للعبد في أي شأن، تخلوا عن حفظه بأمره عَزَّ وجل. ومن أمثلة أوجه الحفظ مِنْ أمر الله تعالى: أن الرياح تهب بأمره، فيتهدم بها ما كتب الله تعالى أن يُهدم، ويسقط ما كتب الله تعالى له أن يتأثر ويسقط بأمره، وتحفظ الملائكة من تلك الرياح ما أمر الله تعالى به أن يُحفظ بأمره، ويأتي الوباء بأمره، وتحفظ الملائكة من أمره عَزَّ وجل ما أمر الله تعالى به أن يُحفظ من عباده. فحفظها للعبد مما أمر به من الوباء هو حفظ امتثال لله تعالى، لأن الله تعالى لم يُقَدّره عليه. وبهذا قد حفظت العبد من أمر الله الذي هو الوباء بأمره وتقديره عَزَّ وجل.

قال مجاهد رحمه الله تعالى: ما من عبد إلا له مَلَكٌ مُوَكَّلٌ بحفظه في نومه ويقظته من الجن والإنس والهوام، فما منهم شيء يأتيه يريده، إلا قال: وراءك، إلا شيئاً يأذن الله فيه، فيصيبه. وعن كعب الأحبار، قال: لو تجلَّى لابن آدم كل سهل وحَزْنٍ، لرأى على كل شيء من ذلك شياطين، لولا أن الله وَكَّلَ بكم ملائكة يَذُبُّون عنكم في مطعمكم ومشربكم، وعوراتكم، إذاً لتُخُطِّفتم[1] وهذا من نعم الله تعالى، ومن دقة تدبيره عَزَّ وجل، وتقديره، وتنظيمه، إذ جعل لأمور الكون سُنناً وأسباباً وترتيباً وتقديراً عظيماً. وكل ذلك بأمره سبحانه وتعالى. مما يعطي بياناً وأهمية لمنهجية الترتيب والتنظيم في أمور العبد، وأن الحياة والكون تسير وفق نظام وتنظيم وتدبير غاية في الدقة والإبداع، الأمر الذي يُوجِب أن يستلهم منه المؤمن أهمية هذه المنهجية في حياته وأعماله، وكذلك يستعظم عظمة ربه تبارك وتعالى في نفسه، ويحمده على نعمة الحفظ والتدبير، ونعمة العلم بهذا، الذي من ثمرته أنه يبني فيه طمأنينة النفس، والتوكل على الله تعالى، وتفويض الأمر إليه عَزَّ وجل، وسؤاله، واستشعار قدر فقره لربه جَلَّ في علاه.

ثم يقرر الله تعالى لعباده قاعدة جليلة القدر، وعظيمة النفع ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ فإن الله تعالى لا يغير حال قوم إلى حال آخر حتى يغيروا الذي بأنفسهم، فلا يغير سبحانه وتعالى نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما أمرهم به في تلك النعمة. فالأصل هو إنعام الله تعالى على العباد، بما فطرهم عليه من الإسلام، وحب الخير، وكره الشر، وألهم الإنسان الفجور والتقوى، ليتحرز من الفجور ويستمسك بالتقوى، وسخر لهم الليل والنهار، وأنبت لهم الزرع، وما يتقوون به في حياتهم، وأرسل لهم الرسل مبشرين ومنذرين، وأنزل عليهم الكتب، فإذا التزمت الأقوام بالحق، اسْتَبْقَوا بها فضل الله تعالى، وأما إذا غير الأقوام ما بداخلهم من الحق، وتغير سلوكهم عن الطريق الصحيح فإن الله تعالى يغير أحوالهم من الخير إلى الشر، وذلك بكثرة الابتلاء المتنوع في نوعه ودرجته، في حال الفرد، وفي حال القوم، وبالتالي إذا أصلحوا

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٤٦٦/١٣)

نفوسهم أصلح الله تعالى حالهم. مما يفيد أن علة التغيير مرتبطة بتغيير حال الإنسان لنفسه، وفي هذا ترغيب وترهيب للإنسان، فيرغبه الله تبارك وتعالى بهذه القاعدة إلى تغيير حاله من المعصية إلى الطاعة، ومن الشر إلى الخير، ومن الباطل إلى الحق، حتى يغير الله تعالى حاله إلى الخير الذي يوصله إلى الجنة وحسن الخاتمة، ويحذره من تغيير نعمة الله تعالى من الطاعة إلى المعصية، فإنها سبب رئيس في تغيير حاله إلى الشر.

فتلك قاعدة في سنة التغيير والتبديل، والتحول من حال إلى حال، وقد ذكر الله تعالى التغيير في حال القوم الذين هم جماعة من الناس، والذين يتمثل فيهم كثرة العدد ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ﴾ فخص القوم بالذكر دون الفرد، لتدل على قوة قدرة الله تعالى في التغيير، وأن الله عَزَّ وجل لا يمنعه كثرة العدد، ولا يعجزه شيء، لأن كل شيء ملكه وتحت سلطانه وقهره وتدبيره. فيكون من باب أولى أن الفرد إذا غير ما بنفسه غير الله تعالى حاله. فإن كان هذا التغيير في حال القوم الكثير العدد، فإنه أدعى في حال الفرد. وهذه دقة في اختيار القوم دون الفرد، وإعجاز في دلالته وبيانه.

ثم يقرر الله تعالى قاعدة في قدرته ومشيئته سبحانه وتعالى، ليتعظ بها العباد ﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾ فإذا أراد الله تعالى عذاباً بقوم أو شِدَّةٍ، أو بلاء، أياً كان نوعه، فإن إرادته عَزَّ وجل نافذة فيهم ﴿فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ﴾ فإنه لا يستطيع أحد أو جماعة أو سبب من الأسباب أن يرده ويمنعه عما أرداه الله تعالى بهم من السوء، حتى المعقبات التي هي الملائكة تتوقف ولا تستطيع أن تمنع شيئاً، لأن الله تعالى أراد بهم السوء، أو بما أراد. وكلمة السوء استوفت جميع أنواع ما يسوء الإنسان، لتعطي جميع أحوال ومفردات وأنواع السوء، وإذا كان هذا عام للقوم بأجمعهم على كثرتهم، فإن حصوله للفرد من بين القوم أيسر وأسهل، وذلك لعظيم قدرة الله تعالى ﴿وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾ فليس لهم أحد يستطيع أن يتولى حفظهم مما أراده الله تعالى لهم من السوء. وفي هذا تحذير من الإقامة على معصية الله تعالى. وأن على العاقل أن يكون تغييره نحو الطاعة، ومن كان على طاعة فعليه أن يلزمها.

ومن جمال السياق، ودقة دلالته، أن جاء التغيير وإيقاع السوء بصفة الكثرة، من خلال كلمة القوم، ففي التغيير قوله تعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ﴾ وعن إيقاع السوء قوله تعالى ﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا﴾ لأن في كلمة القوم استيفاء المراد والقدرة، وأنه لا يرده ولا تعجزه الكثرة سبحانه عَزَّ وجل، فكيف بالفرد، فأغنت القوم عن ذكر الفرد، وكذلك أغنت عن تعداد مفردات التغيير وتنوعها، وأغنت عن تعداد أنواع السوء. وهذا من الإعجاز البياني في القرآن الكريم.

فبعد بيان الله تعالى لقدرته العامة في إنزال السوء بمن أراد من الأقوام يقرر لهم عَزَّ وجل المزيد من البيان عن قدرته، وعظمة مشيئته، وقهره، وسلطانه، سبحانه وتعالى، التي تحمل الحجج الباهرة عن وحدته، وعظيم قدرته وسلطانه، وجلاله وكبريائه، فوجههم للنظر والتأمل فيما يشاهدونه من البرق الذي يلوح بين السحاب، فتمتلئ القلوب منه خوفاً وطمعاً ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴾ فربكم عَزَّ في علاه هو الذي يُريكم من آياته البرق الذي يلوح بين السحاب، فتخافون من قوة بريقه، وما قد ينجم عنه من الصواعق، وتطمعون فيما يحدث به من الغيث، الذي تنتشر به رحمة الله تعالى في الأرض. فلقد لفت النص الكريم إلى آية عظيمة، قد استجمع فيها حال الإنسان بين قوتين عظيمتين متضادتين يرجف بها قلبه: الأولى: الخوف، وهي الحالة التي تستجمع جميع توقعات ما يحصل منه، بأن ترتجف له القلوب خوفاً من الصواعق، ومن شدة وقوة بريقه، أو بما يشير إليه من شدة المطر الذي يخافه المسافر، ويخافه صاحب الزروع الصغيرة، لما يحصل به من تلف الزروع، أو ما ينجم عنه من السيول التي قد تجرف متاعه، وزروعه، وماشيته. وأما القوة الثانية، فهي: الطمع، الذي هو نزوع النفس إلى ما تريده وتهواه من الغيث، وما فيه من الرحمة. فالطمع يعني اشتداد الرغبة والأمل المتعلق بما يحصل من الغيث، جراء البرق الذي يبرق بين السحاب، والذي ينم عن حصول الغيث الذي تنتشر به رحمة الله تعالى، فيزداد منسوب المياه في الآبار، وترتوي منه الأرض، وينبت به العشب، وتخصب الأرض، وتنتشر المراعي للبهائم، وتحصل الثمار من غير عناء ولا مشاقة.

ومن جميل البيان وقوته، أن الآية الكريمة قد افتتحت بلفظ ﴿هُوَ ﴾ لتفيد الحصر ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴾ بأنه هو عَزَّ وجل لا غيره الذي يريكم البرق، ويجعل به في قلوبكم قوتين أو أمرين متضادين، فيجتمع المتضادان من أمر واحد، وهو البرق. بما يدل على وحدانية الله عَزَّ وجل، وقدرته ورهبته سبحانه وتعالى، وضعفكم الشديد أمام مخلوق بعيد، فتخافونه لضعف حيلتكم، وانتفاء قدرتكم على دفع ما تخافونه، ولا تحصيل لكم لما تتمنونه إلا بالإرادة القلبية من التمني والرجاء، مع اختلاط الخوف والطمع الذي يحمل الأمل، فما أفقركم بطمعكم، وما أعجزكم بخوفكم. فخفتم من مخلوق من خلق الله تعالى، وفي نفس الوقت تأملون مما تخافون منه الخير. فمن الذي سخر هذا؟ ومن الذي أجمع فيكم قوتين متضاربتين في وقت واحد؟ وهو أمر ليس لكم فيه حيلة أبدا. فسبحان الله تعالى، إنه والله إعجاز في محتواه، وغزارة في عطاياه، ولفت انتباه لآيات معجزات.

وتزداد الحجج من الله تعالى لعباده، بلفت انتباههم إلى عظيم صنعه تبارك وتعالى فيما يشاهدونه من إنشاء السُّحُبِ وتَكَوُّنِها ﴿وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴾ أي: يخلق الله تعالى السحاب الذي ثَقُل بمائه الْمُحَمَّل به، فهو دلالة على كثرة الماء الذي تَكَوَّنَ منه السحاب، بما يدل على غزارته التي يأملها ويطمع فيها من

جفت ديارهم، وقل ماؤهم. أفلا تتفكرون وتتأملون في هذا السحاب الذي يسوقه الله تعالى إليكم، ويَنْزِلُ بمقدار، فلا يشح به عليكم، ولا تُهلَكُون به، فَيُنبِت لكم به الزرع، وتكثر به المراعي، فَتُطْعَمُون منه، وتُطْعِمُون بهائمكم وأنعامكم. فأين عقولكم من هذه الحجج، وهذه الآيات العظيمة.

ثم ينتقل بهم البيان العظيم مما يرون من البرق والسحاب إلى ما يسمعونه ولا يرونه، وهو الرعد ﴿ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴾ بدأ تبارك وتعالى ببيان تسبيح الرعد الذي يدل على طاعته وعبادته لربه تبارك وتعالى بالتسبيح والتنزيه والتعظيم ﴿ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ ﴾ فالرعد أعظم الأصوات المسموعة، وأما البرق فهو أقوى بريق يبرق، فيضيء ما يبرق عليه. قال الشوكاني رحمه الله تعالى: أي: يسبح الرعد نفسه بحمد الله، أي متلبساً بحمده، ولا ما نع أن يُنطقه الله بذلك ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾ ﴾ وأما على تفسير الرعد بملك من الملائكة، فلا استبعاد في ذلك، ويكون ذكره على الإفراد مع ذكر الملائكة بعده لمزيد خصوصية له، وعناية به[1] ﴿ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ ﴾ والملائكة تسبح الله تعالى من خيفتها لربها عَزَّ وجل، قال ابن الجوزي رحمه الله تعالى: إنها ترجع إلى الله تعالى، وهو الأظهر، قال ابن عباس رضي الله عنهما: يخافون الله[2]

ثم يبين الله تبارك وتعالى المزيد من قدرته، بإظهار وبيان الذين تصيبهم الصواعق ﴿ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ ﴾ فإن الله تعالى هو الذي يُرسل الصواعق، وهو الذي يحدد من تصيبه بمشيئته النافذة التي لا يردها أحد من الخاليق، فلا تصدها وتردها الأسباب عَمَّن قَدَّر الله تعالى عليه الإصابة بها، وعَيَّنَهُ واختاره تبارك وتعالى من خلقه. فإن في تعيين من تصيبه الصواعق دليل على كمال قدرة الله تعالى، ونفاذ مشيئته، إذ تصيبه من بين غيره من المخاليق، مما يعزز لدى المؤمن التَّوكُّل على الله تعالى، والاعتماد عليه، وأن يطلب منه عَزَّ وجل دفع ما يخاف منه، فإنه لا يدفعه عنه إلا هو سبحانه وتعالى الذي له ملك السماوات والأرض. ومن وجه آخر يُبين للكافر الحجة والبرهان والحقيقة التي تُوجب عليه أن يؤمن بالله تعالى، ويوحده، وتُلزمه بأن لا يشرك به شيئاً، وأن يطيعه فيما أمر، وينتهي عما نهى عنه عَزَّ وجل. وأن يترك المجادلة في الله

---

(١) الشوكاني، فتح القدير (٣/٧٢)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٤/٢٣٢)

تعالى التي عليها القوم الكافرون ﴿ وَهُمۡ يُجَٰدِلُونَ فِي ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلۡمِحَالِ ﴾ فهؤلاء الكفار، مع وضوح هذه الحجج، والبراهين يُكَذِّبُون بعظمة الله تعالى وقدرته، ويخاصمون في الله تعالى ﴿ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلۡمِحَالِ ﴾ وهو شديد الأخذ وشديد القوة، وشديد المكر، وشديد العقوبة، وشديد الانتقام والنكال، فقد استوفت كلمة ﴿ شَدِيدُ ﴾ جميع أنواع الشدة، واستوفت ﴿ ٱلۡمِحَالِ ﴾ جميع أنواع العقاب، وجميع طُرُق العقاب. فقد جاء عن أهل العلم أنها تعني: شديد الأخذ، وشديد المكر، وشديد العداوة، وشديد العقوبة، وشديد الانتقام، وشديد العقوبة، والمكر والنكال، وقال ابن قتيبة: أن أصل المحال: الحيلة[١] وفي هذا تحذير وتهديد شديد لمن يجادل في الله تعالى، فإنه شديد الحيلة.

ثم يبين الله تعالى بعد بيان قدرته، وعظيم خلقه، وجليل تصريفه لخلقه أنه هو سبحانه وتعالى الذي يجب على العباد أن يتجهوا إليه، ويُقْبِلُوا عليه عَزَّ وجل، فإن طلب الإقبال محصور عليه في جميع أنواع العبادة ﴿ لَهُۥ دَعۡوَةُ ٱلۡحَقِّ ﴾ فله دعوة التوحيد، وتحقيق العبودية الكاملة له سبحانه وتعالى، فهو الذي يجب على العباد أن يصرفوا له العبادة كلها، وسماها الله تعالى ﴿ ٱلۡحَقِّ ﴾ لأن الحق مناف للباطل، فاستوعبت دلالة كلمة ﴿ ٱلۡحَقِّ ﴾ مجامع الحق، وانتفى لتحقيقها كل باطل، كما حُصِرَت دعوة الحق له وحده تبارك وتعالى، فيكون دعوة غير الله تعالى هي الباطل بجميع أنواعه وأشكاله، وأن دعوة الله تعالى هي الحق فقط. قال ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: إنما عُني بالدعوة الحق: توحيد الله تعالى، وشهادة أن لا إله إلا الله[٢] فإنها له وحده تبارك وتعالى، فمن صرف شيئاً منها لغير الله تعالى فقد أشرك، وتحقق فيه الكفر.

ثم أوضح عَزَّ وجل بطلان دعوة غيره بقوله جَلَّ جلاله ﴿ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسۡتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيۡءٍ ﴾ فالذين يدعون غير الله تعالى من الأوثان التي اخترعوها، حتى جعلوها شركاء لله تعالى، فإنها لا تستجيب لهم بشيء مما يطلبونه من المحبوبات، أو يرجونه من دفع المكروهات عنهم. ومن دقائق البيان نفي الاستجابة وقطعها تماماً بكلمة ﴿ بِشَيۡءٍ ﴾ التي استجمعت نفي القليل والكثير، وكل أنواع المطلوبات التي يطلبها عُبَّاد تلك المعبودات من غير الله تعالى، ثم أكد عَزَّ وجل ذلك بقوله ﴿ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيۡهِ إِلَى ٱلۡمَآءِ لِيَبۡلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ ﴾ فإن استجابة تلك المعبودات من دون الله تعالى لمن يطلبها مماثلة لمن بسط كفيه،

---

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٢٣٣/٤)

(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٤٨٥/١٣)

يطلب من الماء أن يبلغ ويصل إلى فيه، حتى يرتوي منه ﴿وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ﴾ وما هو متحصل عليه بذلك الطلب، بالرغم من استجدائه له، وإظهاره الضعف والحاجة إليه، ببسط يديه لذلك الماء ليرويه من عطشه، ويُشبع حاجته، فَمَثُلُ ذلك كمثل من توجه لتلك المعبودات، يستغيث ويستنجد بها، ويدعوها، ويُظهر فقره إليها، فكما أن الماء لن يصل إليه، فكذلك تلك المعبودات لن تستطيع أن تُوصِل وتحقق له شيئاً مما يطلب منها. ويأتي المعنى كذلك: كمن يريد أن يحمل الماء بكفين مبسوطتين لا يجتمع فيهما الماء، لأنها جانبت الصواب في استجماع الماء، فكذلك من دعا وعبد غير الله تعالى فإنه جانب وحاد عن الحقيقة التي يتحقق بها مطلوبه ومراده. ﴿وَمَا دُعَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ﴾ فما سؤال الكافرين لتلك المعبودات من دون الله تعالى إلا غاية الضياع والتيه، والبعد عن الصواب الذي حُصِرَ في التيه، حتى كان ضياعه ضياعاً بالغ الشدة في الانغماس في التيه.

فكما أن لله تعالى دعوة الحق فإن له السجود والانقياد وكمال الطاعة ﴿وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا وَظِلَٰلُهُم بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ﴾ فإنه يسجد لله تعالى من في السماوات من الملائكة الكرام، ومن في الأرض من المؤمنين به طوعاً، وأما الكافرون به عَزَّ وجل فإنهم يسجدون له كرهاً، حين يُكرهون على السجود[١] ويدخل في الكره أصناف الإكراه: ومن ذلك قوله تعالى عن المشركين في سورة النحل ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيۡهِ تَجۡـَٔرُونَ ٥٣﴾ فإلى الله تصرخون بالدعاء، وتستغيثون به، ليكشف عنكم ذلك. وقال الشوكاني رحمه الله تعالى عن سجود الكفار: وإن لم يسجدوا لله سبحانه وتعالى، فهم منقادون لأمره، وحكمه فيهم بالصحة والمرض، والحياة والموت، والفقر والغنى، ويدل على إرادة هذا المعنى قوله ﴿طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا﴾ فإن الكفار ينقادون كرهاً لأمره، كما ينقاد المؤمنون طوعاً[٢] ومن دقائق البيان أن السجود يشمل هيئة وضع الوجه على الأرض، ويشمل الانقياد والطاعة، وهو يعبر عن الانقياد والتذلل لله تعالى، وبالتالي يشمل سجود المؤمن في صلاته، وكذلك تذلله لله تعالى، وانقياده له بطاعته. وكذلك يشمل انقياد خلقه له من الأجرام السماوية والبحار والأنهار والأحجار والجبال والدواب، وكل ما خلق سبحانه وتعالى، حتى الكافر فإنه منقاد لله تعالى انقياد كره، فهو مقهور بأمر الله تعالى، فإن شاء الله تعالى وسَّعَ له في رزقه، وإن شاء قَتَّرَ عليه، وإن شاء أمرضه، وإن شاء عافاه، وإن شاء منعه وحبسه عما يريد وعازم عليه، وإن شاء مَكَّنَه منه، وأما المؤمن فيقابل قضاء الله تعالى وقدره بالقبول والطاعة والرضا.

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٤٩١/١٣)

(٢) الشوكاني، فتح القدير (٧٣/٣)

ويخبر الله تعالى بأمر دقيق عن طاعة خلقه له تبارك وتعالى ﴿ وَظِلَـٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْـَٔاصَالِ ﴾ فكذلك ظلال مخلوقاته تسجد له سبحانه وتعالى، بحسب حالها، في أول النهار وآخره. وفي هذا تنبيه للعباد على دقائق صنعه تبارك وتعالى، ودقائق بيانه عَزَّ وجل، إذ جعل للمخلوقات ظلالاً تتحرك بحركتها، قائمة ومنسدلة، وراكعة وساجدة، فكل بحسب ما هيأ الله تعالى فيه من الحركة، فاختلاف السجود بين المخلوقات، كاختلاف لغة تسبيح المخلوقات لربها تبارك وتعالى.

﴿ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَـٰتُ وَٱلنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَـٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَـٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّـٰرُ ﴿١٦﴾ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَـٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَـٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾ ﴾

يخاطب الله تعالى رسوله محمد صلى الله عليه وسلم بأن يوجه للكفار سؤالا ﴿ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ قل لهؤلاء المشركين أيها النبي صلى الله عليه وسلم: من رب السماوات والأرض؟ سؤال يحمل استثارة أذهانهم، نحو ما يعلمونه ويعقلونه، ليتوصلوا به إلى إدراك انحرافهم عن الحقيقة، وانغماسهم في الشرك، ثم مباشرة يوجه الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم للإجابة ﴿ قُلِ ٱللَّهُ ﴾ فقل لهم بالجواب، الذي يعرفونه ويعتقدونه ﴿ قُلِ ٱللَّهُ ﴾ لتقريرهم بذلك، وبالعلاقة المتضادة بين اعتقادهم وبين تصرفهم، وكذلك بين تقريرهم توحيد الربوبية، وشركهم في توحيد الألوهية، لأنهم يقرون بأن الله تعالى رب كل شيء ومالكه، ولكنهم يصرفون العبادة للأوثان والأصنام، لاعتقادهم أنها تقربهم إلى الله زلفى.

ثم يوجه الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم إلى أن يوجه لهم سؤالاً آخر، يُلزمهم الحجة، ويقيم عليهم البرهان ﴿ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ﴾ قل لهم عن تناقضهم ﴿ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ﴾ أي: إذا كنتم تعترفون وتقرون بأن الله تعالى رب السماوات والأرض، فما بالكم قد اتخذتم لأنفسكم من دونه أولياء، تتعبدونهم، وتدعونهم، وترجونهم، وتخافونهم. ووردت كلمة ﴿ أَوْلِيَآءَ ﴾ بصيغة الجمع،

وذلك لتعدد المعبودات من الأصنام والأوثان، وتعددها دليل على بطلانها. وهذا من دقائق الوصف والتفنيد في القرآن الكريم.

وهؤلاء الأولياء متصفون بالعجز التام ﴿لَا يَمۡلِكُونَ لِأَنفُسِهِمۡ نَفۡعًا وَلَا ضَرًّا ﴾ فهذه المعبودات من دون الله تعالى متصفة بالعجز التام عن أن تقدم لنفسها خيراً، أو أن تدفع عن ذاتها ضُراً. فالعاجز عن نفسه طلباً ودفعاً، فإنه عاجز حتماً عن أن يُقَدِّم لغيره خيراً، أو أن يدفع عنه شراً، فكيف ترجون منهم النفع ودفع الضر. وهو سؤال استفهام واستنكار، يقررهم بحقيقة أمرهم، وعظيم جرمهم وخطئهم، وأن ليس لهم مفر من هذه الحقيقة، فهي محاجة تخاطب عقولهم، وتُفتح أذهانهم على ما وقعوا فيه من جريمة الشرك. مما يعلم المؤمن منهجية الحوار، ومنهجية إقامة الحجة، ومنهجية التعليم والإرشاد. وكذلك فيه بيان أن دين الله تعالى قائم على العلم والحجج والبراهين المقنعة.

ثم يضرب لهم سبحانه وتعالى مثلاً، بأسلوب الاستفهام الذي يستثير العقول بالقياس الذي لا يختلف عليه اثنان ﴿قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ ﴾ فهل يستوي من فقد البصر، فلا يرى الأشياء على حقيقتها، ومن ينعم بالبصر، فيرى الأشياء على حقيقتها ؟ فحتماً لا يستويان، فكذلك مَثَلُ المؤمن والكافر، فهل يستوي من كان أعمى في دينه، وهو الكافر، ومن كان بصيراً في دينه، وهو المؤمن الموحد، فإن الأعمى في دينه جاهل بما يجب عليه، وما يلزمه، بينما المؤمن الموحد البصير، عالم وعارف بما يجب عليه، وما يلزمه في دينه. فهل يستويان؟ والجواب حتماً، لا يستويان، فالنتيجة إذاً فلماذا تتعاملون مع الله تعالى في عبادتكم له كالأعمى الذي فقد الحقيقة، وكأنكم لا تدركون ولا ترون انحراف وفجور ما أنتم عليه، من عبادة الأصنام العاجزة عن نفسها، فلو أن إنساناً حطمها، لما استطاعت أن تدفعه، أو تدفع أذاه. إنها محاجة تستثير العقل، وتُبصره بالحق والحقيقة، وتكشف له واقعه. مما يؤكد أهمية الحوار الذي يكشف للمتلقي جهله، وقصوره وأخطاءه التي هو عليها.

وبمزيد من تقريرهم بما هم عليه من الجهل، يقول لهم تبارك وتعالى ﴿أَمۡ هَلۡ تَسۡتَوِي ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ﴾ فهل تستوي الظلمات التي لا يَرى فيه البصير ما هو أمامه، مع النور الذي يُجَلِّي الأشياء، ويكشفها على حقيقتها؟ والجوب الحتمي، لا يستويان. فإذاً هل يستوي الكفر والإيمان، فكيف يستويان؟ وبينهما من التفاوت ما بين الأعمى والبصير، وما بين الظلمات والنور. ومن دقائق البيان الرباني: أن النور، جاء مفرداً، بينما الظلمات وردت جمعاً ﴿ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ﴾ لأن الحق وطريقه واحد، بينما طرائق الباطل متعددة، لا حصر لها، فكان النور مفرداً، والظلمات جمعاً لتعدد طرائق الباطل.

ثم ينتقل الاحتجاج وإقامة البراهين الدامغة عليهم بقوله عَزَّ وجل ﴿أَمْ جَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُواْ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ﴾ أي: هل سبب ذلك الشرك منهم، هو التباس قد حصل لهم، بأن خلق هؤلاء الشركاء خلقاً مشابهاً لخلق الله تعالى، فتشابه عليهم خلق الله تعالى مع خلق شركائهم. وهذه مخاطبة للحقيقة التي تستثير عقول المشركين لو أرادوا الحق، فهل لما تعبدون من دون الله تعالى قدرة على الخلق؟ فخلقوا مثل خلق الله تعالى، حتى تُضاهون بهم ربكم تبارك وتعالى؟ فالأمر ليس كذلك. فإنهم لا يقرون ولا يقولون بهذا، ولا أحد يقول بذلك. فإذاً لماذا تركتم الذي يخلق، ومنفرد بالخلق والتكوين، وتذهبون للعاجز عن الخلق تماماً، ولو أن يخلق شيئاً يسيراً مشابهاً لما خلق الله تعالى، فإنه سؤال استنكار، وتوبيخ وتجهيل للعقول التي اختارت هذا المسلك. وهذا يبين مدى حرمان المشركين والمكذبين من الإفادة من هذه الآيات البالغات، التي جميعها حجج وبراهين على أن جميع هذا الكون مخلوق لله تعالى، وأنه سبحانه وتعالى هو ربُّ كل شيء ومالكه، وأن الشرك أمر باطل قد افتعله أصحاب الجهل والنوايا الباطلة. كما يوضح هذا البيان الاستنطاقي للحقيقة أن دين الله تعالى ورسالة المرسلين قائمة على إقامة الحجة بأدق البيان والإيضاح. مما يبين أنه جاء من عند الله تعالى، وأن الذي جاء على أيديهم هم مُرسلون من الله تعالى، وخاتمهم نبينا محمد صلى الله عليه وسلم.

ثم بعد هذه الحجج القوية التي لا يحيد عنها إلا مكابر وجاحد للحق، يقول الله تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم قل لهم بالحق المبين ﴿ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴾ قل يا محمد لهؤلاء المشركين ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ فقررهم إذاً بالحقيقة التي لا ينكرها إلا جاحد مكابر، ومتعمد في كفره وشركه، بأن الله تعالى هو الخالق لكل شيء، فليس لله تعالى شريك فيما خلق أبداً ﴿وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴾ فربكم عَزَّ وجل هو الواحد الذي ليس له ثاني، وهو المتفرد بالألوهية والربوبية، وهو القاهر فوق عباده، وأن كل ما عداه مربوب مقهور ومغلوب له سبحانه وتعالى، فاستحق هو وحده لا شريك له العبودية المطلقة. وفي هذا الأسلوب القرآني الكريم ما يعلم المسلم منهجية الاحتجاج، وإقامة الحجة والدليل، وأن الإسلام دين يتوافق مع العقل الصحيح، ويحاج بالحق القائم على الدليل، وأنه دين قائم على نور الله تعالى الذي لا يأتيه الباطل أبداً.

ثم يتدرج البيان بالحجج والبراهين من الكل إلى الجزء، فمن عموم المخلوقات إلى أجزاء مما خلق تبارك وتعالى، فمن خلق السماوات والأرض إلى إنزال المطر، ليبين للعباد ما يؤسس في عقولهم الحقيقة، وينقلهم به إلى الإيمان الصادق ﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ﴾ فإنه تبارك وتعالى هو الذي أنزل من السماء المطر الذي تحسونه، وترونه، وتتهلل به نفوسكم، وتفرحون به فرحاً عظيماً ﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ﴾ ومن دقة وجميل البيان أن ذكر الله تعالى السماء معرفة بأل التعريف، بينما ذكر الماء بما يفيد التنكير، ليفيد التكثير، وذكره مفرداً، ولم يقل تبارك وتعالى: مياه. لأنه نوع واحد، فيختلط

بالأرض فيكون أنواعاً في أحواله، فمن ذلك ما يدخل في جوف الأرض، فيرتفع به منسوب مياه الآبار، وما يذهب إلى البحار والأنهار، وما يبقى في الأرض على هيئة بحيرات. كما ورد ذكر السماء مفردة ومُعَرَّفَة لأنها سماء الدنيا، وهي واحدة. وبهذا الماء الذي ينزل من علو لساعات معدودة، يحصل به من الكثرة ما تسيل به الأودية ﴿فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ﴾ فسالت بهذا الماء أودية متعددة، وليس واد واحد. والوادي هو كل أرض متسعة، ممتدة، منفرجة بين جبلين، أو بين سلسلة من الجبال، ومن الإعجاز البياني أن كلمة ﴿أَوْدِيَةٌ﴾ جمع، وكذلك نكرة، لتفيد الكثرة، وتفيد بعض الأودية وليس كلها، فاستثنى من ذلك الأودية التي لم يصلها سيلان الماء. وكذلك من جميل البيان ودقته أنه استغني عن ذكر الماء بما يشمله، وهي كلمة ﴿فَسَالَتْ﴾ فقد أغنت عن إعادة ذكر الماء، لأن سيلان الأودية، هو: تدفق وانسياب الماء بجريانه فيها. بما يفيد عبور الماء من الوادي لغيره من الشعاب لكثرته.

ووصف تبارك وتعالى سيلان تلك الأودية أنه ﴿بِقَدَرِهَا﴾ أي بقدر ما تستوعبه وتحمله تلك الأودية، فلا يتجاوز ما تحمله وتستوعبه، فإن كان الوادي واسعاً كثر الماء، وإن كان ضيقاً قل الماء، ولم يرتفع عما يستوعبه الوادي، فهو نفع لا ضر فيه. قال مجاهد رحمه الله تعالى: بقدر ملئها، وقال ابن جُريج رحمه الله تعالى: بقدر صغرها وكبرها(١) فما سالت الأودية بقدر نفسها، بل بما قدره الله تعالى لها. ومن شمولية الدلالة أن يشمل أيضاً معنى: بما قُدِّر لها، قال القرطبي رحمه الله تعالى: وقيل: معناها بما قُدّر لها(٢) وهذا من غزارة دلالة المعنى، أن أعطت المعاني المتوافقة غير المتعارضة، وجميع تلك المعاني والدلالات صحيحة، ومتوافقة.

وفي هذا النص الكريم والمثال الدقيق إشارة إلى نزول القرآن، الذي أنزله الله تعالى بقدره، رحمة للعالمين، كما أنزل الماء من السماء رحمة للعالمين، فالقرآن هداية للقلوب والعقول والنجاة من العذاب، والماء للأجساد، والشراب والإنبات لمصادر الطعام من الخضار والفواكه وأنواع الزروع. وفيه نجاة لهم من الجوع والموت. وكذلك القرآن الكريم، لتنتعش به النفوس والعقول والحياة، والماء لتنتعش به الأرض ومن عليها من الناس والدواب والزروع، فهذا يحقق الله به الحياة السعيدة ورغد العيش، والقرآن كذلك، تتحقق به الحياة السعيدة بين الناس، بمكارم الأخلاق بينهم، وعظيم التشريع الذي يضبط العلاقة بينهم. كما أن القلوب كالأودية لهذا الدين، فمنهم من يتسع للكثير منه، ومنهم من يتسع للقليل منه، وفروق بينهم كالفروق بين الأودية في استيعابها للماء، وفي كل خير. ففي بعض القلوب متسع للعلم الغزير، وبعضها أقل من بعض. فورود القرآن الكريم على أسماع الناس كالماء يمر بينهم في تدفقه وجريانه، من غير ثمن مطلوب، ولا جهد مبذول للإفادة منه،

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٩/٢٠٠)

(٢) المرجع السابق (٩/٢٠٠)

غير الاستماع له والاهتداء به، كمثل السيل في الوادي تأخذ منه، ولا ينقص منه شيء، يسع ويتسع لكل أحد. ويمر السيل على الشعاب والسهول، ويمر بأودية بعد أودية، لينفع الناس والدواب والأشجار. ولكن هناك من يمر به من غير أن يأبه به، وكذلك من يمر بالقرآن وبدين الله تعالى بالرغم مما يوجب الالتفات إليه، إلا أنه منشغل عنه، وكأنه لا يعنيه بشيء، ولا مصلحة له فيه. فهو كالزبد الطافي الذي لا ينفع ولا ينتفع. وهناك قلوب مقبلة على القرآن وعلى دين الله تعالى، باختلاف سعتها له، كالأودية في سعتها للسيل.

ثم يذكر الله تعالى مثلاً آخراً ﴿ فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ﴾ والزبد هو الرغوة أو الغِثَاء أو الزبد الأبيض الذي يطفوا فوق مياه السيول، أي عالياً فوق الماء، وهو تشبيه للكفر والكافر به، فهو منتفخ، وبالرغم من انتفاخه وهيئته المغرية إلا أنه لا حقيقة لها، فإنه سرعان ما يضمحل ويتلاشى، بل ومن خفته أن الرياح تدفعه، فيتمزق ويتقطع، فليس له قوة، ولا قدرة. ثم يؤكد ذلك سبحانه وتعالى بمثل آخر ﴿ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ﴾ وكذلك مما توقدون عليه في النار من الذهب والفضة والنحاس، بأن تُدْخَل إلى النار لإذابتها، فَتُشْعِلُوا عليها ابتغاء تصنيع حلية تتزينون وتتجملون بها من الذهب والفضة التي يتم تذويبها بالنار ﴿ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ﴾ أو طلب متاع تمتعون به من الأواني، بإذابة الحديد والنحاس والصفر والرصاص، لتتخذوا منه الأواني، وغيرها مما يُنتفع بها، فإن له زبد وخبث مثل الذي قبله، يتلاشى ولا يبقى مثل زبد السيل، فلا نفع له ولا بقاء، لأنه يعلوا فوق ما أُذيب من تلك الحلية، والأواني التي تمتعون بها للاستخدام. وقد شمل هذا المثل دلالات متضافرة من المعاني: فَشُبِّه الحق بالماء الباقي الصافي، والباطل بالزبد الذاهب المتلاشي، الخفيق الذي تمزقه الرياح، فليس له بقاء وعلو على الحق مهما ارتفع، فإنه زبد كزبد السيل. فمهما ظهر على الحق فإن الله تعالى سَيُبْطِلُه، ويمحقه فيتلاشى. وكذلك يشمل المثل المؤمن وإيمانه وعمله، فإنه كالماء المتدفق، الذي ينتفع غيره به، وأما الكافر فكالزبد، لا نفع فيه لغيره، ولا نفع فيه لنفسه، فإنه يؤدي بنفسه إلى التهلكة، كحال الزبد الذي أدى بطفوه وعلوه إلى الهلكة، فَعَرَّض نفسه للهلاك والدمار.

وبمثل ما ذُكر جَلَّ جلاله من الأمثال السابقة، يضرب الله تعالى المثل للحق والباطل ﴿ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ﴾ فهكذا مَثَّلَ وبَيَّنَ الله تعالى الحق والباطل ﴿ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ﴾ فالزبد الذي هو الرغوة الخفيفة فوق سطح السيل ﴿ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ﴾ أي: يرميه الوادي إلى جنباته، فلا يحفل به، فيكون بالياً متفرقاً، وضعيفاً لا يُؤبه به على جنبات وحواف الوادي. وهذا مثل الكافر والباطل أمام الحق والإيمان والمؤمن ﴿ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ وأما الذي ينفع الناس من الماء والجواهر والحلي وما ينتفع الناس به من المتاع ﴿ فَيَمْكُثُ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ فيبقى نفعه، ويبقى عناية الناس به، كعنايتهم

بالحلي وبالمتاع، وبمثل هذا يبق الحق لأهله ﴿كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ﴾ فمثل ذلك الضرب من الأمثال التي ساقها الله تعالى تعلياً وبياناً يضرب الله تعالى الأمثال في كل شأن وباب، للطفه وعنايته بعباده، وفي هذا تأكيد لقوله تعالى ﴿كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ وَٱلۡبَٰطِلَ﴾

وفي جملة هذه السياقات من الأمثال ما يبين أهمية ضرب الأمثال لتقريب المعنى، وأن في ضرب الأمثال ما يقرب الصورة والحقيقة للأذهان، مما يوجب العناية بها، سواء في مجال التعليم، أو الدعوة والإرشاد، والنصح والتوجيه، فإنها تقوي الفهم، وتفتح الذهن، وتكشف الحقائق، لما فيها من الصور المتشابهة. وهذا يؤكد عناية القرآن الكريم بمصالح الإنسان، ومخاطبته بكل وجه يمكن أن يحقق له الخير، ويصرفه عن الشر. وفي ذلك غزارة وعمق الأمثال في القرآن الكريم من كل وجه. وهذا يدل على بديع تصريف الله تعالى، وأن الكافر قد حرم نفسه من الخير بكفره، وعدم استجابته للحق الذي نزل من عند الله تعالى.

﴿لِلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَهُۥ لَوۡ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفۡتَدَوۡاْ بِهِۦٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ سُوٓءُ ٱلۡحِسَابِ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ (١٨) ۞ أَفَمَن يَعۡلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ كَمَنۡ هُوَ أَعۡمَىٰٓۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ (١٩) ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلۡمِيثَٰقَ (٢٠) وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلۡحِسَابِ (٢١) وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِمۡ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ وَيَدۡرَءُونَ بِٱلۡحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عُقۡبَى ٱلدَّارِ (٢٢) جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٖ (٢٣) سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ (٢٤)﴾

بعد أن ضرب الله تعالى لعباده الأمثال التي توضح لهم الحجج والبراهين على ربوبيته وألوهيته، يبين تبارك وتعالى ثواب من تَعَقَّلَ وعَقِلَ تلك الأمثال وغَيْرَهَا من آياته سبحانه وتعالى، ثم استجاب للحق بطاعته وامتثال أمره عَزَّ وجل، واستجاب لرسوله صلى الله عليه وسلم فإن لهم الجنة ﴿لِلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ فالذين انقادوا لربهم تبارك وتعالى وأطاعوا رسوله صلى الله عليه وسلم بالتصديق والامتثال، فإنهم هم المؤمنون الذين لهم ﴿ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ وهي الجنة، قال قتادة رضي الله عنه: الجنة. واختاره ابن جرير الطبري

رحمه الله تعالى[١] وكذلك قال ابن عباس رضي الله عنهما والجمهور: أنها الجنة، وقال أبو عبيدة: كل خير من الجنة، وما دونها[٢] فالحسنى هي الجنة، وكل ثواب حسن في الدنيا والآخرة من الجزاء الحسن. كما قال تعالى في سورة النحل ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾

وأما من امتنع ولم يستجيب لربه تبارك وتعالى فإن لهم نار جهنم وبئس المصير ﴿ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴾ فمن لم يستجب لله تعالى بالإيمان به، ولرسوله صلى الله عليه وسلم بالإيمان والتصديق، وينقاد لأمره ونهيه، فإنه لو كانت لهؤلاء الأرض جميعاً، وكذلك مثله معه، فَيُقَدِّمُونه عِوضاً عن ذلك العذاب لهوله وشدته، لقدموه وافتدوا به فيما لو استطاعوا وقُبِل منهم، ولن يُقبل منهم ذلك، فيما لو استطاعوا، مما يبين هول وشدة ما ينتظرهم من العذاب.

وقد قدم الله تعالى بيان حالهم ومشاعرهم حيال معاينتهم للعذاب، قبل أن يبين وعيده لهم بصفة العذاب، الذي قال الله تعالى عنه ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ ﴾ فلهؤلاء عند الله تعالى دقة المناقشة عن أعمال الذنوب التي اقترفوها كلها، فإنه لن يُغفر شيء منها لهم، فلن يتجاوز لهم عن سيئة من سيئاتهم. وفي هذا تحذير شديد، ووعيد عظيم، وتوبيخ وتقريع لمن بقي على كفره. وفي تقديم وصف حالهم على بيان وعيده لهم بسوء الحساب، ما يفيد استثارة وأنفسهم، وتعظيم جرمهم لعلهم يتوبون. فاستحقوا بعدل الله تعالى سوء الحساب، المتضمن لدقة تفنيد الذنوب، المليئة بالخزي والعار. فنسأل الله تعالى السلامة.

ثم بعد المناقشة والحساب يحصلون على مصيرهم الأليم ﴿ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ﴾ ومسكنهم الذي يسكنونه ويمكثون فيه في الدار الآخرة هو جهنم ﴿ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴾ فبئس ذلك المستقر الذي يستقرون فيه، وبئس الفراش فراش جهنم، الذي يأويهم، ويستقرون به استقراراً أبدياً. فنسأل الله تعالى السلامة والفوز بالجنة والنجاة من النار، والمسلمين أجمعين، بفضلك ورحمتك يا لطيف، يا أرحم الراحمين يا رب العالمين. وفي هذا

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٥٠٤/١٣)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٢٣٨/٤)

تحذير للكافرين من سوء الحساب، ومن جهنم وبئس المهاد. ومن رحمة الله تعالى أنه أوضح وبين للعباد مصير وجزاء كلاً من الفريقين: المؤمن والكافر.

ثم يوجه الله تعالى عباده بأسلوب المقارنة، التي تحمل الإنكار على من كفر ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ﴾ فهل من يعلم أن الذي أُنزل عليك أيها النبي من القرآن والوحي هو الحق الذي لا ريب ولا شك فيه، كمن هو أعمى، لا يرى الأشياء والحقائق. فإن الحال والمفارقة بينهما بعيد جداً.

ثم يبين تبارك وتعالى منزلة أهل العقول الصحيحة التي يفرقون بها بين الحق والباطل، ثم يسلكون الحق ويتركون الباطل، ويولون ويدبرون عنه. فهناك فرق بين من حاله حال الذي علم بالحق واختاره واتبعه، وبين الذي حاله حال الأعمى الذي لا يبصر طريقه ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ فإن الذين يتعظون بما يسمعون ويرون هم أصحاب العقول الرشيدة. وفي هذا مدح وثناء على من آمن وأطاع الله تبارك وتعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم، فإنهم أهل العقول الكاملة، التي علمت بالحق فاتعظت، واتخذته سبيلاً وطريقاً، وتركت طريق الضلال، واستغنت عنه بنور الحق المبين. ومن جمال المدح والثناء لهم أن سماهم الله تعالى ﴿أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ لأن لُب الشيء خلاصته، وأجمله، وأطيبه، فهؤلاء قد تمثلت عقولهم بأطيب ما يكون عليه العقل. كما أن في هذا توبيخ للكافرين ولعقولهم، وتفكيرهم، لأنهم انحازوا لظلام الكفر، والذي تبين به أنهم ليسوا من أهل العقول الكريمة الطيبة. ومن دقائق البيان في الوصف هو ورود ﴿إِنَّمَا﴾ التي حصرت الاهتداء والاتعاظ في أولي الألباب، وانتفاء هذه الصفة الكريمة الطيبة عن غيرهم، لامتناعهم عن الحق.

وقد سمى الله تعالى استجابتهم بلفظة ودلالة التذكر ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أي: إنما ينحصر الاتعاظ في أولي الألباب، وينتفي ذلك ويمتنع على غيرهم، فليس غير أولي الألباب يحصل لهم التذكر. وهذا غاية المدح والثناء، بأن قصر الله تعالى وصف الثناء عليهم. وفي هذا تزكية للمؤمنين بأنهم هم أولي الألباب.

وفي هذا الأسلوب المقارن، الذي يستثير الفكر، وينبه الذهن، ما يدل على رحمة الله تعالى بعباده في تعليمهم، وتنبيههم، وتنويع أساليب التعليم لهم، مع دقة الألفاظ، وجميل العبارة، وكمال السياق، وتناسق البيان، وتحفيز العقل للتأمل والتفكر، ثم ينهي سبحانه وتعالى خطابه بالمدح والثناء على المؤمنين، وتخصيصهم بالعقل والتعقل، بما يبين أهمية العقل، وأهمية مخاطبته، بإقامة الحجة والبراهين والأدلة، مع استثارة واستنهاض غير المؤمنين ليؤمنوا، من خلال تجهيل اختيارهم للكفر على الإيمان، والباطل على الحق. مع ذم اختيارهم للكفر، الذي لا يستحقون به إلا التوبيخ والتهديد والوعيد والإنذار، بعد أن ظهرت لهم الحجة الكاملة والبينة الواضحة، التي لا مراء فيها ولا جدال.

ويستمر الثناء لأهل الإيمان، بإبراز أهم صفاتهم في تلقيهم للحق وتعاملهم معه ﴿ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلۡمِيثَٰقَ ﴾ فإنهم أوفياء بما عقدوه من العهود والمواثيق فيما بينهم وبين ربهم تبارك وتعالى، بالالتزام به، وأدائه وافياً كاملاً، فإنهم يُوفُون بوصية الله تعالى التي أوصاهم بها. ويدخل في ذلك ما عاهدهم عليه تبارك وتعالى حين استخرجهم من ظهر آدم عليه السلام، كما قال عزَّ وجل في سورة الأعراف ﴿ وَإِذۡ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَأَشۡهَدَهُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدۡنَآۚ أَن تَقُولُواْ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنۡ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ ﴾ ويدخل في الوفاء بالعهد: الالتزام والوفاء بالعقود فيما بينهم وبين العباد، لأن الله تبارك وتعالى أمر المؤمنين بالوفاء بالعقود والعهود، كما قال تعالى في أول آية من سورة المائدة ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِ ﴾ ومن صفاتهم كذلك عدم نقض المواثيق ﴿ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلۡمِيثَٰقَ ﴾ ولا يخالفون العهد الذي عاهدوا الله تعالى عليه. وتبعاً لذلك فإنهم لا ينقضون ما واثقوا عليه غيرهم من العهود والمواثيق، بل يلتزمون بها. فلا يغدرون إذا عاهدوا أحداً، ولا يفجرون إذا خاصموا غيرهم، ولا يكذبون إذا تحدثوا، ولا يخونون إذا ائتمنوا، لأن ذلك خلاف الميثاق الذي واثقوا الله تعالى به. وقد ذكر الشوكاني رحمه الله تعالى أنه: يدخل تحت الميثاق كل ما أوجبه العبد على نفسه، كالنذور ونحوه، ويراد بالعهد جميع عهود الله تعالى، وهي أوامره ونواهيه التي أوصى به عبيده، ويدخل في ذلك الالتزامات التي يلزم بها العبد نفسه، ويراد بالميثاق ما أخذه الله على عباده حين أخرجهم من صلب آدم[1] فاستوعب الوفاء بالعقود، وعدم نقض المواثيق جميع أنواعها وحالاتها، وأوجهها.

ومن صفاتهم الكريمة أنهم يمتثلون في تواصلهم بأوامر الله تعالى ﴿ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ ﴾ فمن صفاتهم الوصل وعدم القطع لما أمر الله تعالى به أن يُوصل ولا يُقطع، ومن غزارة البيان، ودقة مبناه أنه عام في جميع العلاقات التي أمر الله تعالى بوصلها، فيدخل في ذلك صلة الأرحام والقرابات، والصلة المرتبطة بالمؤمنين عموماً، بحسب مقتضياتها، من صلة الجار، والإحسان على المعسر، والمحتاج، ولتشمل جميع أنواع الصلة بالسلام، والإكرام، والزيارة، والمعاونة، والدعاء، وأن لا يقطع تلك الصلة وإن قُطعت، لأن صلته لها هي لله تعالى، وليس مكافأة، وكذلك من جميل البيان استيعاب القدرات في الصلة، فإن الله تعالى مُطَّلِعٌ على قدرة كل أحد من عباده. وهذا من الإعجاز البياني في القرآن الكريم. كما أن في هذا ما يفيد الثناء على

---

(١) الشوكاني، فتح القدير (٧٨/٣)

المؤمنين لقيامهم بمكارم الأخلاق، مما يدل على أن هذا الدين الكريم هو دين مكارم الأخلاق، وأنه يؤسس في اتباعه الفضائل الخلقية، ويصرفهم عن مساوئها.

ومن صفاتهم كذلك ﴿ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ﴾ فيخافون الله تعالى خِيفةً تحملهم على القيام بواجب الصلة، واجتناب قطعها، ومن جميل البيان ودقته أن قيامهم بذلك هو خشية ربهم تبارك وتعالى، والخشية خوف مختلط بتعظيم لله تعالى، لعلم المؤمن، علم اليقين بمن يخشاه ويتعامل معه. ومن دوافع ذلك أيضاً أنهم يخافون الحساب ﴿ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴾ فخوفهم تجاوز الحساب إلى سوء الحساب، فيخافون ويهابون استقصاء البحث والتدقيق في الحساب والمناقشة، لعلمهم بقدرة الله تعالى، وأنه قد أحصى كل عمل ابن آدم، حتى ولو كان مثقال ذرة. مما يبين أثر الترغيب والترهيب عند أولي الألباب، الذين هم أهل الإيمان، فيتورَّعُون عن المعاصي، ويجتهدون في دقائق الطاعة، خشية لله تعالى، وخوفاً من سوء الحساب. وهذا البيان من الله تعالى فيه كشف للجوانب النفسية ودوافعها وخلجاتها التي تدفعها للطاعة، فيكشفها سبحانه وتعالى، ويصفها في أدق حالاتها.

ولما أن تلك الصفات السابقة تحتاج إلى صبر في الأداء، فقد نوه سبحانه وتعالى بالصبر كصفة لهم ﴿ وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ ﴾ فإن صبرهم ليس لمصلحة خاصة، بل إنها خالصة له جَلَّ جلاله ﴿ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ ﴾ لا شائبة فيها لغيره. ومن دقائق السياق أن جاء الصبر بصيغة الماضي، ليفيد تحقق الصبر وتمكنه منهم، وليفيد التنبيه لهم بها، ومدح وثناء لهم من تحقيقها في نفوسهم، وكأنه قد تحققت منهم، ومضى تحققها وسرى في نفوسهم. وكذلك ليفيد التأكيد بوجوب تحققه، وأن الأمر يحتاج إلى مجاهدة، لأن الصبر رأس وملاك الطاعة والاستقامة عليها، وعلى مكارم الأخلاق. فإنها دلالات عظيمة في بيان قد كثرت دلالاته وقلت ألفاظه. فيعجز كل أحد أن يسوق من الكلام ما يماثله ويشبهه.

ومن صفاتهم العظيمة: أداء الصلاة، فقال عَزَّ وجل ﴿ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ أي: يُؤدُّون الصلاة، ولفظة ﴿ وَأَقَامُوا۟ ﴾ تدل على تجاوز أداء هيئتها إلى كمال استيفاء مطالبها، من واجبات وأركان وسنن. وهذا من دقائق البيان، وبلاغة الوصف، مع عدم الإسهاب في مفردات الكلام. وكذلك تدل لفظة ﴿ وَأَقَامُوا۟ ﴾ على إنشاء قيام خاص بالصلاة، فإن القيام الأساسي هو من أجل الصلاة، وإن لحق به غيره فإنه ليس له، ولا بسببه. وفي هذا دلالة على النية، لأن القيام لها مقترن بالنية، فلم يقم لغيرها، بل قام لها، حتى وإن فعل شيئاً قبل قيامه لها، فلا ينصرف إلا لها، لأنه أصل القيام. وتم التعبير لها بلفظ القيام ﴿ وَأَقَامُوا۟ ﴾ لبيان منزلتها

وعظمتها، ففي اختيار اللفظة ما يدل على المقصد ولمعنى، كما تفيد جملة ﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ جميع أنواع الصلوات: المفروضة والتطوع. وكذلك وردت بصيغة الماضي ﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ ليفيد تحققها وتمكنها منهم، وليفيد التنبيه لهم بها، وكذلك مدح وثناء لهم على إقامتها وتحقيقها كما أمر الله تعالى بها.

ومن صفات المؤمنين أولي الألباب: الإنفاق ﴿وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ فهم ينفقون مما رزقهم الله تعالى من أنواع الرزق، وقد جاء الإنفاق كذلك بصيغة الماضي، ليفيد ويدل بمثل ما دلت عليه إقامة الصلاة، والصبر. ومن حكمة الله تعالى أن جعل الإنفاق من بعض الرزق وليس كله أو معظمه. فقال عَزَّ وجل ﴿مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾ فأفادت ﴿مِمَّا﴾ التبعيض، لتنتفي به المشقة في النفقة، بحيث ينفق بعضاً من الرزق، بحسب تقدير المؤمن لما عنده، ولحاجته، ولمن سينفق عليهم. ونسب الله تعالى كل ما عندهم من الرزق له عَزَّ وجل ﴿مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾ فالرزق هو من الله تعالى. فهم ينفقون من رزق الله تعالى، فكأنهم وكلاء عليه، فهم بمثابة الوكلاء في التصرف والاستخدام، وأن المالك الحقيقي هو الله تعالى. وفي هذا تشجيع لهم على الإنفاق، لأن الرازق هو الله تعالى الذي أمر بالنفقة مما رزقهم، وليس الإنسان هو الذي رزق نفسه. ومن جميل البيان أنه لم يحدد الْمُنْفَق عليهم، ليستوعب ويشمل كل من يجب عليهم النفقة، أو تُستحب عليهم النفقة، أو المعونة، أو رفع مشقة بها عن أحد، أو هدية لقريب، أو غريب، أو بعيد، لتستوعب مساحة وأنواع الْمُنْفَق عليهم، واختلاف حالاتهم، وموجبات ودواعي الإنفاق التي لا حصر لها.

ثم بين تبارك وتعالى حالتين وصفتين للإنفاق ﴿سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ أي: ما كان خفياً لا يعلمه أحد، أو ما كان جهراً أمام الغير، فلم يمنعهم عن النفقة أي حال من الأحوال، سواء أكان ذلك ليلاً أو نهاراً، وسواء أعلم به أحد، أو لم يعلم به أحد، بما يفيد المبالغة في الإنفاق حسب الأوجه والأحوال. ومن صفاتهم كذلك ﴿وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ أي يقابلون السيئة بالحسنة، فيدفعون إساءة من أساء إليهم بالإحسان، فيدفعون ويطردون القبيح والمؤذي بالحسن من الأقوال والأفعال، ليدرؤوا بالحسنة ما ينجم ويأتي عن السيئة، وما يكون من مغبتها، وما خلفها، وما تجره من شر. وبالتالي يدفعون الشر بالخير، والعمل السيء بالعمل الصالح، والذنب بالتوبة. وهذا يحتاج إلى التجمل بالصبر والحلم والصفح والعفو، والسخاء، وهي من عظيم مكارم الأخلاق. مما يدل على علو مكارم الأخلاق في الإسلام وعند المؤمن، وأن على المؤمن أن يتحرى صفات أولي الألباب، ويتمثل بها، كما أن عليه أن يتحرَّاها ويلتمسها، ويُنَشِّئ نفسه عليها. كما يدل هذا على كمال هذا الدين، وجمال سجاياه، وما يحققه في أتباعه من محاسن الأخلاق، ومكارم الصفات، وما يطرد عنهم من المساوئ الخلقية. ويُثْبِت ويبين جميع هذا لغير المسلمين أن السعادة محصورة في هذا الدين، سواء في الحياة الدنيا أو للحياة الآخرة.

ثم يُوضح ويبين الله تبارك وتعالى جزاء هؤلاء المؤمنين الذين هم أولي الألباب، المتصفون بتلك الصفات ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمۡ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ﴾ فإن لأولئك العاقبة الحسنة. ومعنى العقبى: أي العاقبة، التي تقع عقب أو بعد شيء آخر، فهؤلاء هم الذين أعقبهم الله تعالى عن دنياهم دار الجنان، فلهم الدار العاقبة الحسنة، لتقابل أولئك الذين لهم سوء الدار، كما تقدم بيانه سابقاً. ثم فسر الله تعالى معنى عاقبة الدار بقوله عَزَّ وجل ﴿ جَنَّـٰتُ عَدۡنٍ يَدۡخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّـٰتِهِمۡۖ وَٱلۡمَلَـٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴾ فعاقبة الدار التي ستكون لهؤلاء المؤمنين هي ﴿ جَنَّـٰتُ عَدۡنٍ ﴾ أي: في وسط الجنة الذي هو أعلاها، فهي إقامة دائمة لا تنقطع، وتعني كذلك وسط الجنة الذي هو أعلاها، أي أعلى درجة في الجنة، وسقفه عرش الرحمن جَلَّ وعَز، وفيها عين التسنيم، والجنان حولها محدقة بها[1] فهي جنات إقامة، أي يقيمون فيها إقامة أبدية، خالدين لا يموتون فيها، ولا يُخْرَجُون منها.

بل ومن مزيد فضل الله تعالى عليهم أنه يكرمهم بأن يجمع إليهم أهليهم الصالحين ﴿ يَدۡخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّـٰتِهِمۡ ﴾ أي يجمع الله تعالى بينهم وبين أحبابهم، من الآباء والأزواج، والأبناء، ممن هم صالحون لدخول الجنة، وهم المؤمنون. وفي هذا ما تقر به أعينهم، فيرفع الله تعالى درجات الأدنى إلى درجات الأعلى منهم، تفضلاً من الله تعالى وإحساناً وتكريماً وإكراماً لهم.

ثم يبين الله تعالى أن من نعيم الجنة دخول الملائكة على المؤمنين ﴿ وَٱلۡمَلَـٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴾ وفي هذا دلالة على كثرة الملائكة عليهم السلام، وكثرة الأبواب، فيدخلون من كل أبواب إقامتهم في الجنة، بما يفيد أنه دخول سرور وتهنئة لهم بعقبى الدار التي قد أكرمهم الله تعالى بها، يقولون للمؤمنين ﴿ سَلَـٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ﴾ فسلام عليكم، وأمن عليكم، دائماً، لقاء صبركم، فإنما حصلتم على هذا الفوز بسبب صبركم ﴿ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ﴾ فإنها نعم العاقبة هذه الدار التي هي الجنة، التي نزلتم بها، فأسكنكم الله تعالى إياها بفضله ومَنِّهِ وكرمه.

وفي دخول الملائكة على المؤمنين في الجنة، والسلام عليهم، وتهنئتهم، ومخاطبتهم ما يفيد كريم الحفاوة، وكذلك أن المؤمنين يرون الملائكة، ويخاطبونهم. وفي هذا ترغيب وبيان للمقام الذي ينتظر المؤمنين، وأنه من

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٣٠/٨) وابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٣١٨/٣) ملخص

لوازم الوصول إلى ذلك المقام هو الصبر، فقد عللت الملائكة عليهم السلام وصول المؤمنين إلى الجنة بما صبروا ﴿ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ﴾ وفي هذا تأكيد وبيان أن الطاعة تحتاج إلى الصبر على أدائها، وأن المعصية تحتاج إلى من يصبر عنها، وأن مقاومة النفس ركيزة لها، وأن حبسها عن المغريات والمثيرات أمر لا بد منه لتحصيل الطاعة التي تحصل بها عاقبة الدار. فنسأل الله تعالى بأسمائه الحسنى وصفاته المجيدة العليا أن يجعلنا من أهل الجنة ونزلائها الذين تدخل عليهم الملائكة، وتُسلم عليهم قائلة لهم ﴿ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴾

﴿ وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ ﴿٢٦﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴿٢٧﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ﴿٢٩﴾ ﴾

بعد أن ذكر الله تعالى أحوال السعداء، انتقل السياق الكريم إلى بيان أحوال الأشقياء، ليكون في ذلك مقارنة يستهدي بها من أراد الهداية، ويعتبر ويتعظ بها العقلاء. فقال الله تعالى ﴿ وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴾ فصورة هؤلاء الأشقياء أنهم على نقيض السعداء في أعمالهم وتصرفاتهم، فالسعداء يُوفون بعهد الله تعالى، وهؤلاء ينقضونه ﴿ وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ ﴾ فلا يلتزمون بعهد الله تعالى، بل ينقضونه ويُبطلونه، ولا يُوفون ولا يهتمون ولا يأبهون بما جاءت به الرسل عليهم الصلاة والسلام، وما تضمنه والكتب والحجج والبراهين، وذلك أنهم يعملون بخلاف أمر الله تعالى، فيعملون بمعصيته الله عَزَّ وجل. ومن شناعة مسلكهم أن نقضهم هذا يحصل منهم بعد العلم به، وتوثيقه على أنفسهم، والالتزام بأن يعملوا به ﴿ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ ﴾ مما يدل على مبالغتهم في الطغيان والكفر، والزيادة في تشنيع صنيعهم.

ومن صفاتهم كذلك ﴿ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ ﴾ فإنهم يتمثلون بمضادة الحق ومعاندته، بقطعهم لكل ما أمر الله تعالى به أن يوصل، فلا يأبهون به، ولا يحملون هَمَّه، ولا خوفاً من عقوبة ما يقطعون، وسواء كان فيما يتعلق بقطع الأرحام التي أمر الله تعالى بها أن تُوصَل، أو غيرها مما أمر الله تعالى به أن يوصل.

فهم يعملون بالقطع المناقض لما أمر الله تعالى به أن يُوصَل، مما يبين قوة تماديهم، حتى وصل الأمر بهم أنهم لا يخافون ولا يخشون الله تعالى. وقد قال صلى الله عليه وسلم (آية المنافق ثلاث، إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان)[١] مما يدل على نفاقهم الظاهر والمؤكد بأفعالهم وأقوالهم.

ومن صفاتهم كذلك ﴿وَيُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي: يُفسدون بالكفر والمعاصي، وقد استوفى قوله تعالى ﴿وَيُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ جميع أنواع المفاسد التي لا حصر لها، فلا يَسْتَثْنُونَ شيئاً منها. ومن جزالة بيان الآية الكريمة، أن اقتصر النص الكريم على ثلاث صفات، قد استوفت جميع صفاتهم السيئة، فلهم ثلاث علامات: نقض العهود والمواثيق مع الله تعالى، وقطعهم لما أمر الله تعالى به أن يوصل، وإفسادهم في الأرض، فلم يتعرض البيان الكريم إلى أضداد مناقضتهم لأهل السعادة من حيث الخشية، والخوف من سوء الحساب، والصبر ابتغاء وجه الله تعالى، وغيرها من صفات أهل السعادة، وذلك لدخولها في النقض والقطع والإفساد. فمن نقض وقطع وأفسد فقد استوعب جميع نقائض أهل السعادة، وهذا من جزالة البيان وإعجازه.

ثم ذكر تبارك وتعالى عقوبة هؤلاء الذين عملوا بمسلك الشقاء ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ فهؤلاء المتصفون بتلك الصفات الذميمة ﴿لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ﴾ وهي الإبعاد والطرد عن رحمة الله تعالى ﴿وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ أي سوء العاقبة والمآل، فمأواهم النار التي هي دارهم وقرارهم، وبئس المصير.

فلما أخبر الله تعالى بحال السعداء، وحال الأشقياء في الآخرة، مع ما يحدث لبعض العصاة في الدنيا من بسط الرزق، وما يحدث لبعض المؤمنين من التقتير والقلة في الرزق، يخبر الله تعالى عن حكمته في بسط الرزق وتوسعته لبعض الناس دون بعض، وتقتيره وتقليله لبعض الناس دون بعض ﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ فإن الله تبارك وتعالى هو الذي يُوَسِّع الرزق ويُكَثِّره لمن يشاء ﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ﴾ فيكثره ويوسعه، وكذلك هو الذي يقلله ﴿وَيَقْدِرُ﴾ أي: يقلله ويقتره على من يشاء، سواء كانوا أفراداً أو جماعات، أو أمماً، فإن الأمر يخضع لمشيئته سبحانه وتعالى وحكمته، لينتفي بهذا النص الكريم ألفهم الخاطئ، من أنه مُرتبط برضا الله تعالى عن مَنْ بُسِط له الرزق، وعن غضبه وسخطه عَزَّ وجل على من قُدِرَ عليه رزقه. فقد يوسع تبارك وتعالى على العاصي والكافر لحكمة أرادها الله تعالى، وقد يقتر ويقلل على المؤمن لحكمة يعلمها العزيز الحكيم، فليس لذلك علاقة بكرامة العبد ومنزلته في الآخرة، فلا يدل البسط على الكرامة، ولا يدل التقتير على الإهانة. وفي هذا ما يدل على أهمية إزالة الفهم الخاطئ، في حال التعليم والإرشاد، والدعوة،

---

(١) البخاري، الجامع الصحيح (١/٢٧) برقم (٣٣)

وغيرها، من أجل إزالة ما يترتب على المفاهيم الخاطئة من شك أو ريبة، أو تصور خاطئ، أو اعتقاد مناف للحقيقة، مما يدل على عناية هذا الدين بالعقل وسلامته فكره، وتفكيره وتحليله واستنتاجه، وتصحيح القياس، والاستنتاج والاستنباط.

ثم يخبر الله تعالى بما يكشف الجانب النفسي عند الكافرين حينما يصيبهم الله تعالى من بسط الرزق ﴿وَفَرِحُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ فإن فرحهم بالحياة الدنيا، أغراهم عَمَّا عند الله تعالى، مما يدل على أهمية عدم الغرور والاستعجال في الحكم، بل إن التريث والتفكر مهم جداً، حتى لا يلتهي الإنسان بواقعه عما يجب عليه، وعن حقيقة الأمر، أو أن يغريه واقع الحال عن الحقيقة. فلا يغتر بالصحة ولا بالمال ولا بالجاه، ولا بشيء من زينة الحياة الدنيا، فتأخذه عن الحقيقة، خاصة المتعلقة بالآخرة، كما صورها سبحانه وتعالى بأجمل وأوضح بيان ﴿وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٞ﴾ فإن قدر الحياة الدنيا جميعها، بما فيها من الزينة والإغراء، فإنها لا تمثل في الآخرة إلا ما يمثله القليل والصغير والحقير من المتاع ﴿إِلَّا مَتَٰعٞ﴾ والمتاع ما ينتفع به الإنسان في بيته، كالإناء الذي يشرب فيه، أو يطبخ فيه، وهو ما يتمتع به الإنسان فينتهي وينقضي، من طعام أو ما يُحمل فيه الطعام، مما يدل على حقارة الدنيا، وصغرها في رحاب الآخرة. وجاء في الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال (والله! ما الدنيا في الآخرة إلا مثلُ ما يجعل أحدكم إصبعه هذه، وأشار يحي: بالسبابة في اليم، فلينظر بما يرجع)[1] مما يبين حجم نعيم الآخرة في أبلغ بيان وتصوير.

وبعد أن بين الله تعالى فرح الكفرة بالحياة الدنيا، وغرورهم بما هم فيه من الرزق، يخبر الله عَزَّ وجل ويكشف عن مدى عمق ذلك الغرور الذي امتلأت به نفوسهم ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ فهذا القول من الكافرين هو تأكيد لما سبق بيانه في هذه السورة، وهو قوله تعالى عنهم ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦٓۗ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٞۖ وَلِكُلِّ قَوۡمٍ هَادٍ ﴿٧﴾﴾ فيقول من أصر على كفره، ولم يستجب: هَلاَّ أُنزل عليه آية غير التي جاء بها. مما يدل على الإمعان في التمادي، ورغبتهم في آية محددة، يختارونها، أو قد اختاروها. كقولهم: اجعل لنا الصفا ذهباً، وكما قال تعالى عنهم في سورة هود ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٞۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾﴾ وهم يكذبون

(١) مسلم، صحيح مسلم (٢١٩٣/٤) برقم (٢٨٥٨)

فيما يطلبون، لأن فيما أنزل الله تعالى على نبيه صلى الله عليه وسلم من الآيات ما يكفيهم، وأولها حجة القرآن الكريم، وهم أهل اللغة التي تحداهم الله تعالى بأن يأتوا بمثله، ولو بسورة واحدة.

فيرد الله تعالى عليهم بقوله عَزَّ وجل ﴿ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِيٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴾ قل يا أيها النبي لهؤلاء المغرورين، أن الضلال بمشيئة الله تعالى، فليس هو خروج عن مشيئته، وقدرته، وأنهم بكفرهم هذا مستعصين عليه جَلَّ جلاله. فلو شاء لألزمهم بالإيمان وهم كارهون، وكذلك فإنه. فإن ضلالهم بمشيئة الله تعالى ﴿ وَيَهْدِيٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴾ أي: يهدي بمشيئته سبحانه وتعالى إلى الحق الذي هو الإسلام من رجع إليه عَزَّ في علاه بالتوبة والإقلاع عن الكفر. فالإنابة هي الرجوع إلى الحق والإقلاع عن الذنب. فلو شاء تبارك وتعالى لمنع الهداية عنهم، ومنعهم عن الهداية. وقد نسب الله تعالى الهداية إليه جَلَّ جلاله ﴿ وَيَهْدِيٓ إِلَيْهِ ﴾ أي إلى جنابه عَزَّ وجل، فإن من اهتدى بهذا الدين فقد تمثل بحظوة جناب الله تعالى، وفي هذا غاية التكريم أن نسبهم الله تعالى إلى جنابه. وقد جعل الله تعالى للإنسان إرادة في الاختيار ﴿ مَنْ أَنَابَ ﴾ فالإنابة تكون من العبد إلى الله تعالى، وهي أن يرجع إلى الله تعالى بالتوبة والطاعة. وكل من أناب إلى الله تعالى هو بتوفيقه ومشيئته، فلا شيء يخرج عن مشيئته، فلو شاء غير ذلك لألزم العبد به. فقد جعل للعبد حرية الاختيار التي لا تعني الخروج عن مشيئته.

وقد جعل الله تبارك وتعالى بحكمته للإنسان مشيئة من الاختيار، كما قال عَزَّ وجل في سورة التكوير ﴿ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴾ وجعل له القدرة والاستعداد، كما قال عَزَّ وجل في سورة الشمس ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ ﴾ فعرفها وأفهمها بما يجعلها تدرك الخطأ من الصواب، والحق من الباطل، حتى تتحمل مسؤولية ما يكون منها. وأوضح لهم طريق الخير وطريق الشر، وهذه المشيئة تحت مشيئة الله تعالى، ﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ فليس لأحد الانفراد بالمشيئة المستقلة، والمنفردة عن مشيئة الله تعالى فكل مشيئة تحت سلطان مشيئة الله تعالى. بما يفيد: أن الله تعالى لو شاء بأن لا يكفر الكافر، لجعلهم مؤمنين بقدرته وسلطانه، فلا تعتقدوا بكفركم أنكم خرجتم عن سلطان ربكم ومشيئته. فإنكم تحت قبضته. بما يصحح مفاهيم العباد عن المشيئة، بأنها مشيئة مقيدة بمشيئة الله تعالى.

فلا يعني ذلك أن الإنسان منفرد بها، بل إن الله سبحانه وتعالى هو الذي منحها للإنسان بمشيئته، ويمنعها بمشيئته. فيصحح سبحانه وتعالى مفاهيم عباده، ويعلمهم الحق وسبيله، حتى يعلموا ما يجب عليهم، وما هم عليه. وأن ذلك لا يعني أنهم خارجون عن مشيئته سبحانه وتعالى. كما يصحح بهذا البيان أفهام من حاد فهمه عن الصواب. وهذا من عظيم التدبير والحكمة والعدل من الله العزيز الحكيم.

ثم ينتقل البيان الكريم إلى النوع الآخر من العباد، وهم الطائعون، ليبين حالهم، ويكشف الخير الذي هم فيه بسبب إنابتهم لربهم تبارك وتعالى ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ﴾ فبسبب إنابتهم، حصل لهم الإيمان، وتحقق لهم اليقين المنافي للشك والريبة، فحصلت لهم الطمأنينة، وانتفى عنهم الاضطراب. مما يفيد أن الذين كفروا قد فقدوا الطمأنينة. وهذه الطمأنينة هي طمأنينة القلب، وهي أساس طمأنينة الجوارح، وهدوء النفس، وراحة البال، وهي الأعظم سبباً في تحقيق وتحصيل السكينة وعدم الاضطراب، وما يتبعها من التصرفات. وأن علة تحصيلها في قلوب المؤمنين هو بسبب ذكرهم لله تعالى ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِ ﴾ فبتحصيلهم الإيمان أولاً، ينتج عنه اطمئنان قلوبهم بذكر الله تعالى، فإن ذكر الله تعالى حقق لهم الطمأنينة، مما يعني إنهم يستأنسون بذكر الله تعالى.

ثم يخبر الله تعالى بقاعدة عامة في تحقيق الطمأنينة ﴿أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ﴾ فبدأ الله تعالى هذه القاعدة بحرف التنبيه ﴿أَلَا ﴾ لتعطي لفتة كريمة، وتنبيهاً عزيزاً بعظيم ما بعده من كلام رب الأنام، مما يوجب الاهتمام بمضمونها، وبمزيد الانتباه إليها. فإن ذكر الله تعالى يحق للذاكر الطمأنينة، وأنه كلما زاد المؤمن من ذكر الله تعالى زادت طمأنينته القلبية التي تنعكس على جوارحه وتصرفاته وسلوكه واختياراته وقراراته. والطمأنينة هي اليقين المخالف للشك، الذي يولد السكون وعدم الاضطراب، بسبب ما يقذفه الله تعالى في قلب العبد من الرضا واليقين، والتوكل على الله تعالى، فإن شعوره بالاعتماد على القوي العزيز، وأنه هو حسبه ووكيله يجعله معتمداً على قوة لا يخاف صاحبها، ولا يحمل الهم الذي يولد لديه القلق والانزعاج، ولا يحزن على فائت مما فات، لعلمه أن الله تعالى يعوضه خيراً.

ومن دقائق البيان وجزالته مع قوة وسعة محتواه أن الطمأنينة تستوعب الاستئناس بذكر الله تعالى، والحب له، والأنس به، وهدوء القلب وسكينته وراحته، وبُعدُه عن الشك الجالب للاضطراب، وخُلُوّه من الريبة بقوة اليقين، وذهاب الهم والحزن الذي يُقلق الإنسان من الأمور التي يترقبها، والأمور التي تحمل ما مضى من الأحزان والأسى. كما أن دلالة جملة ﴿بِذِكۡرِ ٱللَّهِ ﴾ تجمع عموم ذكر الله تعالى: من التسبيح والتهليل والتكبير، والصلاة، وتلاوة القرآن الكريم، وتستوعب كذلك أداء النوافل، والدعاء في السراء والضراء، وأداء الفرائض. وقد ذكر الله تعالى الذكر والطمأنينة مرتين: الأولى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِ ﴾ والثانية: ﴿أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ﴾ لتفيد التنبيه. كما وردت الطمأنينة بصيغة المضارع

﴿تَطۡمَئِنُّ﴾ لتفيد التجدد والتكرار، فكلما ورد ما يزيل الطمأنينة، عادت الطمأنينة وتكررت، ولازمت قلب المؤمن الذاكر لله تعالى، ملازمة متعاقبة، لا يتخلله ما يُفسد تلك الطمأنينة.

ثم يخبر الله تعالى بالمزيد عن حال المؤمنين الذين حققوا الإيمان، وأدوا الواجبات ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمۡ وَحُسۡنُ مَـَٔابٖ﴾ فمع ما هم فيه في الدنيا من الطمأنينة بذكر الله تعالى فإن لهم في الآخرة ﴿طُوبَىٰ لَهُمۡ﴾ أي: الفرح، وهو وما تقر به أعينهم، لقاء ما يحصلون عليه من الخير، وهي كذلك تعني الجنة، وقد جمعت كلمة ﴿طُوبَىٰ﴾ كما ذكر ابن جرير الطبري رحمه الله عدداً من المعاني عن بعض الصاحبة والتابعين رضي الله عنهم أجمعين: أي نِعمَ مآلهم، وغبطة لهم، وفرح وقرة عين، وحُسنى لهم، أي: أصبت خيراً، أي: خير لهم. والخير والكرامة التي أعطاهم الله تعالى، وأنها اسم من أسماء الجنة، أي: الجنة لهم، وقيل شجرة في الجنة[1] وبهذا تكون كلمة ﴿طُوبَىٰ﴾ قد جمعت مجامع الخير في الآخرة. وهذا من مزايا الألفاظ في القرآن الكريم، أن تعطي اللفظة جميع ما هو مقصود من دلالاتها، فورودها دون غيرها من الألفاظ، لاستيفائها المقصد والمراد، ببلاغة غاية في الإيجاز والإعجاز.

ومما لهم كذلك ﴿وَحُسۡنُ مَـَٔابٖ﴾ أي جميل المرجع والمنقلب والعودة، وهذه الكرامات هي للذين اتصفوا بصفتين عظيمتين ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ فالإيمان أولاً، وهو الأساس والقاعدة الأولى، لما تضمنه من الإقرار بالله تعالى رباً، وبمحمد رسولاً صلى الله عليه وسلم، وكذلك الإيمان بالملائكة والكتب والمرسلين واليوم الآخر. ثم يتعاضد الإيمان مع عمل الصالحات ثانياً، فيشترك مع الإيمان عمل الصالحات، وهي: الأعمال التي أمر الله تعالى بها، لأن جميع ما أمر الله تعالى به هو من الصالحات، لتستوفي جميع أوامره عَزَّ وجل، وفي هذا تقرير بأن منهج الله تعالى قد انتفى منه وعنه الباطل، وثبت صلاح ما فيه للفرد والمجتمع في الدنيا والآخرة، فهي جملة غاية في كمال دلالتها، وبلاغة مضمونها، وجزالة ألفاظها، فثلاث كلمات حوت منهج الله تعالى بكامله ﴿ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾

﴿كَذَٰلِكَ أَرۡسَلۡنَٰكَ فِيٓ أُمَّةٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهَآ أُمَمٞ لِّتَتۡلُوَاْ عَلَيۡهِمُ ٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَهُمۡ يَكۡفُرُونَ بِٱلرَّحۡمَٰنِۚ قُلۡ هُوَ رَبِّي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ مَتَابِ ٣٠ وَلَوۡ أَنَّ قُرۡءَانٗا سُيِّرَتۡ بِهِ

(1) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٣/٥١٩-٥٢٢)

ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ۗ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا ۗ أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۗ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ وَعْدُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۗ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ ۚ أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ أَم بِظَـٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ ۗ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا۟ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ لَّهُمْ عَذَابٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَقُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٣٤﴾ ﴾

يخبر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بنهج الأمم السابقة مع أنبيائهم عليهم السلام، وبماذا يُجيب ويرد على الكافرين المعاندين صلى الله عليه وسلم ﴿ كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَـٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ لِّتَتْلُوَا۟ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَـٰنِ ۚ قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴾ فكما أرسلناك أيها النبي لهذه الأمة بما أرسلناك به لتبلغهم رسالة الله تعالى إليهم ﴿ لِّتَتْلُوَا۟ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَـٰنِ ﴾ وهم يعاندون بكفرهم، فكذلك أرسلنا في الأمم الماضية رُسلنا، وقد كُذِّب الرسل الذين أرسلناهم من قبلك. وفي هذا بيان للحال المتشابه بين الأمم في تتابعها عبر الأجيال المتعاقبة، لِتَأثُّرِهم بما أَلِفُوه عن آبائهم من الكفر والضلال. وكذلك أنت أيها النبي تواجه مثل ما واجه الرسل من قبلك. وفي هذا تخفيف على النبي صلى الله عليه وسلم من هول تكذيب المشركين له. ليعطي هذا البيان من الله تعالى كل من يدعو إلى الله تعالى مثلاً ومنهجاً للمسيرة الدعوية، بأنها محفوفة بالمتاعب، كما واجهها الرسل من قبل، وخاتمهم نبينا محمد صلى الله عليه وسلم.

وقد افتتحت الآية الكريمة بقوله سبحانه وتعالى ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ التي أفادت تأكيد التشابه والتوافق ﴿ كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَـٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ ﴾ أي كذلك أرسلناك بأقوى الحجج في أمة، والأمة كما عرفها الراغب الأصفهاني رحمه الله تعالى، هي: كل جماعة يجمعهم أمر ما، إما دين واحد، أو زمان واحد، أو مكان واحد، وجمعها أمم[١]

(١) الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، ص (٢٣)

فالمعنى قد أرسلناك أيها النبي في جماعة قد خلت من قبلها جماعات ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ ﴾ قد مضت من قبلها جماعات على مثل الذي هم عليه من الكفر والشرك ﴿ لِّتَتْلُوَاْ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ﴾ لتبلغهم ما أرسلناك به إليهم، من الوحي الذي أوحيناه إليك، فإن علة وسبب إرسالنا إياك إليهم أيها النبي هو للتلو عليهم القرآن الكريم، وما معه من السنة، وجملة ﴿ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ﴾ تستوفي القرآن الكريم، وكذلك السنة، لأنها وحي من الله تعالى ﴿ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ ﴾ وهم يجحدون وحدانية الله تعالى، ويكذبون بها، وينكرونها ﴿ قُلْ هُوَ رَبِّى ﴾ فقل لهم أنت أيها النبي أمام كفرهم هذا ﴿ هُوَ رَبِّى ﴾ فالذي تكفرون به هو الله ربي، فأنا مؤمن به، وموحد له في العبادة والربوبية والألوهية، وأسمائه وصفاته عَزَّ وجل ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴾ فلا إله غيره، وحده لا شريك له. فلا إله إلا هو عليه توكلت واعتمدت، وإليه مرجعي وأَوبَتِي، وتوبتي. فقل لهم ما تُقَرِّرُ به توحيد الله تعالى، وإفراده بالعبادة، وأنه هو الذي تعتمد عليه، بتوكلك عليه، وإنابتك إليه، وأن مرجعك وأوبتك إليه وحده لا شريك له، وكذلك توبتك، فإنها إليه سبحانه وتعالى، أي: إليه أرجع وأنيب، فلا يستحق ذلك إلا هو عَزَّ وجل.

ثم يوضح الله تعالى منزلة القرآن الكريم وعظمته، وما يستحقه من الفضل على غيره من سائر الكتب التي سبقته ﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ۗ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا ﴾ فلو كان في الكتب الماضية كتاباً ﴿ سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ ﴾ فسارت وتحركت به عن أماكنها ﴿ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ ﴾ أو أن الأرض قُطِعَت به وتصدعت وتشققت ﴿ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ أو أن يصير الأموات أحياء يتكلمون بقراءته عليهم في قبورهم، لكان هذا القرآن هو الأحق بأن يتصف بهذه المواصفات دون غيره من الكتب، لما فيه من الإعجاز الذي لا يستطيع الإنس والجن أن يأتوا بمثله، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً وعضيداً، ولا حتى أن يأتوا بسورة من مثله، ومع هذا الإعجاز والاستحقاق إلا أن هؤلاء المشركين قد كافروا به ﴿ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا ﴾ ولكن مرجع الأمور كلها راجعة إلى الله تعالى، بما يفيد أنه ليس لأحد أن يُملِي أو يشترط على الله تعالى شروطاً. وفي هذا بيان لمنزلة القرآن واستحقاقه لتلك الصفات فيما لو كانت الكتب السابقة له متصفة بذلك الوصف، فإن القرآن الكريم هو الأحق بذلك، لما فيه من الإعجاز في الأخبار الماضية، والقادمة، والإعجاز في بيانه وبلاغته، وتراكيب ألفاظه، وفي أحكامه، وفقهه، وتشريعه، وأخلاقه، ومواعظه وهدايته، ورحمته، وحلاوة سياقه، وجميل حروفه وكلماته، وأثره على النفوس، وعلاجها وشفائها.

ثم يخبر الله تعالى عن طمع المؤمنين في إيمان الذين كفروا ﴿أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ أفلم يعلم المؤمنون ويتبين لهم أن الله تعالى لو شاء لآمن أهل الأرض جميعاً من غير معجزة، بقضاء وهداية من عنده، فإن عدم إيمانهم لا يعني خروجهم عن مشيئة الله تعالى. وقد ورد اليأس بمعنى العلم، أو أن العلم مضمر، قال ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى عند تحرير هذا المعنى: ألم ييأسوا علماً، يقول: يؤيسهم العلم، فكان العلم فيه مضمرا[١] فإن الله تعالى قادر على أن يرغم هؤلاء الكفار على الإيمان، حتى لا يبقى كافر على وجه الأرض إلا وقد آمن، ولكن مشيئة الله تعالى، وحكمته اقتضت أن لكل نفس ما كسبت، فلكل أحد من الناس ما اختاره وأراده لنفسه، حتى يكون حسابه وفق اكتسابه، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر. بما يفيد أن عدم إيمانهم أمام الحق الواضح هو من عند أنفسهم، وهو اختيارهم، وليس خروجاً عن مشيئة الله تعالى، وبالتالي أفلم يتحقق لكم أيها المؤمنون هذا الأمر. الذي ورد التنبيه له، وكشف الحقيقة له بأسلوب الاستفهام الانكاري، الذي يبين قدرة الله تعالى فيما لو شاء ذلك لتحقق. فجدير بالمؤمنين أن يعلموا أن لو يشاء الله تعالى لهدى الناس جميعاً.

ثم يخبر الله تعالى بما سيكون لهؤلاء الجاحدين الكافرين ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ فلا يزال الله تعالى يوالي عليهم القوارع التي تصيبهم بسبب كفرهم، ومع هذا فهم لا يتعظون ولا يعتبرون بها، فحالهم مع القوارع حالين: الأول: أنها تصيبهم في ديارهم ﴿تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ﴾ فالإصابة واقعة عليهم بسبب صنيعهم من الكفر، وكلمة ﴿تُصِيبُهُم﴾ تفيد مباشرة الوقوع عليهم. والثاني: متعلقة بالاتعاظ مما يصيب غيرهم ﴿أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ﴾ أو بما يحدث من القوارع على من جاورهم، فإنهم لا يتعظون بما يحدث من القوارع على من جاورهم من القرى والأماكن والأقوام. ومن دقائق البيان وعظيم فوائده أن الله تعالى ذكر ما يصيبهم أو يصيب من هم قريبين منهم باسم القارعة ﴿قَارِعَةٌ﴾ وهي التي تحمل معنى: الإصابة القوية التي تهزهم، وتطرق قلوبهم وحياتهم وممتلكاتهم، أو تطرق أقواماً قريبين منهم، فتكون هذه القارعة في حالهم أو أموالهم، ليشمل ويستوعب ذلك القرع أنواعاً مختلفة من البلاء، والعذاب، والنقم. فقد تكون بالقتل، أو بالأمراض والأوبئة، أو الجدب، والقحط، أو بغير ذلك. فقد شملت دلالتها: النوع، والأثر، والقوة. ومن حكمة الله تعالى أن هذه القوارع تتوالى عليهم، وتتابع إلى أن يأتي قضاء الله تعالى بهم ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٥٣٦/١٣)

﴿أَوۡ تَحُلُّ قَرِيبٗا مِّن دَارِهِمۡ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ وَعۡدُ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ﴾ وهذه القوارع مستمرة ومتتالية عليهم ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم﴾ بما يفيد التتالي والتتابع ﴿حَتَّىٰ يَأۡتِيَ وَعۡدُ ٱللَّهِ﴾ بالهلاك والعذاب. وقد ورد ﴿وَعۡدُ ٱللَّهِ﴾ عاماً، ليشمل كل ما وعد به. ومن ذلك موتهم، أو هلاكهم، أو قيام الساعة، أو غيره مما وعد به ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ﴾ فلا يتغير ولا ينقض وعد الله تعالى الذي وعد به وقرره، سواء ما يخص نصر المرسلين والمؤمنين، أو إهلاك الكافرين، أو إصابتهم بالقوارع، أو غير ذلك مما وعد الله تعالى به، وسواء كان ذلك الوعد، ما وعد به من فتح مكة، أو قتلهم، وهزائمهم، أو غير ذلك مما هم موعودون به فيما مضى منهم، أو فيما هو قادم عبر السنين والأجيال، فهي جملة تُشَكِّل وتبين دلالتها أن وعد الله تعالى هو وَعْد حق وعظيم، وأنه واقعُ لا محالة، وهي تشكل قاعدة عظيمة للاتعاظ.

ثم يخبر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بما يُطَمئنه ويسليه، من أن ما يمر به مع قومه من التكذيب والاستهزاء فإنه قد مر به من سبق من المرسلين ﴿وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ بِرُسُلٖ مِّن قَبۡلِكَ﴾ فلقد استهزأ أقوام بمن أرسل إليهم من المرسلين، فلم يكن ذلك خاص بك وبقومك إيها النبي صلى الله عليه وسلم، فلك فيمن سبق عبرة ومثل، مما يرفع عنك الهم والغم، والضجر مما تعانيه منهم، وفي هذا البيان من الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم ما يدلل ويبين أهمية المواساة، والتذكير، وشد الأزر، بتقديم العظة والموعظة.

وقد بدأ البيان الكريم بأداة التحقيق ﴿وَلَقَدِ﴾ لتأكيد تحقق حصول الاستهزاء الذي هو السخرية ممن سبق من الأمم مع أنبيائهم، كما سخر قوم نوح من نوح عليه السلام، وكذلك قوم عاد، وغيرهم من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام. ثم يبين الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين تعامله عَزَّ وجل مع أولئك المكذبين ﴿فَأَمۡلَيۡتُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ثُمَّ أَخَذۡتُهُمۡۖ فَكَيۡفَ كَانَ عِقَابِ﴾ فبدأهم بحلمه تبارك وتعالى، وهو الإملاء لهم والتريث، وعدم الاستعجال لهم بالعقوبة ﴿فَأَمۡلَيۡتُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي: أمهلتهم، وتركتهم مدة، فلم يسارع سبحانه وتعالى لهم بالعقوبة، ليتبين للعباد حلم الله تعالى ورحمته. وفي ذلك تحذير للكافرين، ولكل عاص، بأن لا يغتر بحلم الله تعالى.

ثم بعد الإملاء والإمهال لهم يأتي وعد الله تعالى ﴿ثُمَّ أَخَذۡتُهُمۡۖ فَكَيۡفَ كَانَ عِقَابِ﴾ ثم بعد الإمهال أخذهم الله تعالى بالعقوبة، وجاء الأخذ بصورة مهيبة ومرعبة مخيفة، إذ لم يذكر سبحانه وتعالى صفة الأخذ وهيئته، أو نوعه، في هذا السياق، ليتبين أن في هذا الإخفاء من الرهبة، والتهديد، والتهويل والتحذير، الشيء العظيم. ثم يزداد تهويلاً بالاستفهام ﴿فَكَيۡفَ كَانَ عِقَابِ﴾ الذي يفيد التهديد والتقريع، فكيف

كان عقابي الذي بلغكم عنهم، بما يفيد أنه يجب على من استهزأ بك أيها النبي من قومك، واغتر بإمهالنا لهم، فعليهم أن يتعظوا، وأن لا يغتروا، فإن لهم عبرة فيمن كان قبلهم، فعليهم الاعتبار بهم.

ثم يُعَلِّمُ اللهُ تعالى عباده عن ذاته العظيمة، وعن قدرته، وعظيم سلطانه، بإثبات قوة قهره ووحدانيته عَزَّ وجل، وإنكار أن يماثله أحد عَزَّ في علاه. وذلك بأسلوب الاستفهام الاستنكاري عن تسوية هؤلاء المشركين بين الله تعالى العظيم القادر القاهر، وبين الشركاء العاجزين ﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ﴾ فهو استفهام يتضمن المقارنة التي تستثير العقل والفكر، وتُلهم العاقل الصواب بمنطق الحجة العظيمة ﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ قال شيخ الإسلام بن تيمية رحمه الله تعالى: وهذا استفهام تقرير، يتضمن إقامة الحجة عليهم، ونفي كل معبود مع الله تعالى، الذي هو قائم على كل نفس بما كسبت، بعلمه وقدرته وجزائه في الدنيا والآخرة، فهو رقيب عليها، حافظ لأعمالها، مجاز لها بما كسبت من خير وشر[١] فالقائم يكون من صفاته القدرة والعلم بمن هو قائم عليهم، وهو الله تبارك وتعالى، فمع وضوح هذا الشأن العظيم، فهناك من يساوي بينه وبين العاجزين المسلوبين الإرادة من الأوثان المعبودة.

أفمن هو متولي أمور العباد بالحفظ والتدبير والإرزاق والآجال، والرقيب والحسيب عليهم، والعالم بهم، حتى تحققت لهم معرفته، ثم يكون مع هذا العلم من يجعل مع هذا الخالق العظيم، المتفرد في قدرته وتدبيره للعباد، من يجعل معه شركاء عاجزين عما هو مخصوص به من القدرة سبحانه وتعالى. فهو سؤال استفهام تقريري، وفي نفس الوقت هو تقريع وتوبيخ لهذا الإنسان المشرك الذي انحرف عن مسار التعقل والتفكر الصحيح، وعدم إفادته مما وهبه الله تعالى من العقل. فأين هذا الكافر المشرك عن هذا الأمر، لينحدر إلى هاوية الشرك، فيجعل مع الله تعالى القادر القائم على كل نفس يجعل معه شريكاً عاجزاً عن تدبير نفسه، فضلاً عن تدبير شأن غيره.

وقد ورد السياق الكريم بأسلوب غاية في كمال البناء، وإعجاز البيان، فقد ترك الجواب على السؤال، لأن معناه معلوم بالبديهة، ومع ذلك جعلوا له شركاء. وكلمة ﴿ قَآئِمٌ ﴾ تدل على كمال التدبير ودقته، وشموليته، وكذلك على العلو عليهم، وأنها قدرة وصفة دائمة لا تنتهي ﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ فهو الحفيظ الرقيب المدبر لكل نفس، وأشار هنا للنفس عموماً، ليشمل الإنسان وكل ما يتنفس من الحيوان والحشرات والدواب والطيور والزروع، وخص الكسب، لخصوصيته وعلاقته بالمخاطبين، بإظهاره من بين كل ما هو قائم عليه من خلقه تبارك وتعالى، لأنه الأمر الذي يُشْغِلُ بال وذهن الإنسان، وهو التحصيل، بما تقوم

(١) ابن تيمية، الفتاوى (١٥/١٩٧)

به النفس من الكسب والتحصيل من الخير والشر، والقول والفعل، فتذهب تلك النفوس لمرادها ولا تحصله، وقد تُحَصِّل جزءاً منه، وقد لا تحصله، وقد تفقده أو تفقد جزءاً منه بعد تحصيله من غير إرادة لها، وقد يهيئه الله تعالى لها من غير عناء، وقد يهيئه لها بمشقة وعناء، أو بقليل من المشقة، ومع هذا فإنهم متفاوتون في التحصيل قدراً ونوعاً، وسعة، وكذلك يستوفي الكسب ما تُحَصِّلُه وتكسبه من خير أو شر، بالقول أو الفعل، أو من النية الطيبة أو السيئة، ومع هذا كله فإن الله سبحانه وتعالى مُحْصِيه عَزَّ في علاه.

ويشمل لفظ ﴿بِمَا كَسَبَتْ﴾ جميع ما تكسبه من الخير والشر، وما تكسب من الذنوب، وما تكسب من الأجر، فهو شامل لجميع أنواع التحصيل، ومقاديره. فإن هؤلاء المشركين جعلوا لله تعالى الذي هو قائم على كل نفس شركاء، فكيف يكون هناك شريك للقائم المباشر عَزَّ وجل على تدبير كل نفس؟ إنه سؤال يستثير العقول، ويستثير التفكير، ببيان هو غاية في الدقة والوضوح. وقد اقتصر البيان الكريم على الشريك دون تفنيد عجزه، لأن العجز معلوم فيه، ومتحقق من كل وجه، بل إنه معدوم الإرادة والمشيئة والقدرة، والحول والقوة. ومن عمق البيان ومقصده العميق أن الله تعالى ذكر ما يدل عليه، وهو قيامه على كل نفس ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾ لأن فيه دلالة على أنه معلوم ذلك بالفطرة التي فطر اللهُ الناسَ عليها، وكذلك معلوم من تدبيره، وعظيم خلقه وملكوته أن القائم على كل نفس محصور له جَلَّ جلاله، كما أن ثبات الإيمان به متحقق بالفطرة، فضلاً عن ملكوته العظيم، ومشاهدة قدرته فيما خلق، وتصريفه للكون الذي يشاهده الإنسان بنفسه. فلماذا تحيدون عن الحق الذي فطركم عليه، وتذهبون إلى ما لم يفطركم عليه، بل اتخذتموه من عند بأنفسكم.

ثم يستثير الأفهام والعقول والفكر نحو اختلاف أسماء الشركاء ﴿قُلْ سَمُّوهُمْ﴾ وفيه تنويه إلى أخطائهم، وحجج بطلانها، أنكم أنتم الذين تختارون للشركاء أسماء، فكيف يكون ذلك؟ فلو كان شريكاً حقيقياً لكان له اسم خاص به، وليس منكم أيها المشركون. وكذلك أنتم الذين سميتموهم شركاء من عند أنفسكم. وهذه قمة في الاحتجاج، فكيف تُشركون مع من خلقكم ما تصنعون، وتُسَمُّون بما تشتهون وتختارون من الأسماء ﴿قُلْ سَمُّوهُمْ﴾ فليس لهم حظ من الشراكة إلا التسمية المفتعلة، ويذكر شيخ الإسلام بن تيمية رحمه الله تعالى استنتاجاً آخر: فإذا جعلتم أولئك شركاء، فسموها إذاً بالأسماء التي يُسَمَّى بها القائم على كل نفس بما كسبت، فإنه سبحانه وتعالى يُسمى بالحي القيوم، المحيي المميت، السميع البصير، الغني عما سواه، وكل شيء فقير إليه، فهل تستحق آلهتكم اسماً من تلك الأسماء؟ فإذا انتفى عنها ذلك عُلم بطلان مسماها[1] إنها مناقشة ومحاجة

([1]) ابن تيمية، الفتاوى (١٩٧/١٥)

قوية الدلالة والحجة، مما يبين أن هذا الدين هو دين قائم على الدليل والحجة والبرهان، وأنه ينظم الفكر والتفكير، وينمو ويرتفع به إلى مصاف أولي الألباب.

ثم ينقلهم تبارك وتعالى إلى أمر آخر ﴿أَمْ تُنَبِّئُونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ وهو سؤال استنكار، ليقرر به حقيقة من حقائق جهلهم، أفتخبرونه بشريك له في الأرض، وهو لا يعلم لنفسه شريكاً سبحانه وتعالى، فيُجَهلهم ويُثبت لنفسه كمال العلم سبحانه وتعالى، فهل تظنون أنه يخفى عليه شيء في الأرض، فإن قلتم لا، فلماذا تتخذون هؤلاء الشركاء، وهو لا حاجة له بهم، وإن قلتم نعم، فمن أين لكم هذا، ما هو دليلكم. وخص الله تعالى الأرض من بين العوالم العظيمة ﴿أَمْ تُنَبِّئُونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ لأن الأرض يرونها ويعيشون عليها، فكيف إذاً بما لا تعلمونه من العوالم الأخرى، أفتعلمونه بما في الأرض، وتتركون ما هو خارج الأرض، فلو كان يخفى عليه شيء في الأرض لخفي عليه ما هو في العوالم الأخرى، لاضطرب الكون كله، مما يدل على جهلكم وافترائكم. بل إنه عليم، وقائم على هذا الكون.

ثم يتدرج البيان إلى القول الذي لا أصل له من الحقيقة ﴿أَم بِظَٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ﴾ فظاهر القول هو: ظن باطل لا أصل له، ولا حقيقة يعتمد ويستند عليها. أي: أتسمون الشركاء بظاهر من القول الذي ليس له حقيقة. فإنه أمر في غاية الغرابة، وغاية ضعف التفكير، مما يبين أن مسلك المشركين هو مسلك التوارث عن الآباء من غير دليل ولا حجة.

وبعد محاجتهم بالمحاجة البليغة يقول لهم تبارك وتعالى عن حقيقة ما هم عليه، ويكشف لهم أسباب ذلك، فقال عَزَّ وجل ﴿بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا۟ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ بل زَيَّنَ الشيطان للذين كفروا ما أشركوا به من الشرك مع لله تعالى ﴿بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَكْرُهُمْ﴾ فهم أشركوا، والشيطان زَيَّنَ لهم مكرهم الشركي، فتحقق منهم الكفر، والمكر الذي زينه الشيطان لهم من الكفر، وقد سمى الله تعالى شركهم كفر ﴿لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ مما يبين أن الشرك هو نوع من الكفر. وقد بدأ البيان الكريم بحرف ﴿بَلْ﴾ الذي يدل على معنى: لكن، فينفي ما سبق، ويُثبت ما بعده من بيان. وبالتالي ينفي إخبارهم وإنباءهم لله تعالى ﴿أَمْ تُنَبِّئُونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ وإثبات علمه عَزّ وجل، فليس له حاجة فيهم، وليس الأمر هو أن تنبؤوا الله تعالى بما في الأرض، ولكن زينتم شرككم لأنفسكم، وزَيَّن لكم الشيطان كفركم، وجاء الفعل ﴿زُيِّنَ﴾ من غير ذكر الفاعل للتزيين، ليستوعب تزيين الشيطان لهم،

وتزيين الأمر منهم لبعضهم البعض، وإقناعهم لأنفسهم بذلك، وكذلك الفعل ﴿زُيِّنَ﴾ من الزينة، ليفيد التحسين والتجميل بالقول والفكر، حتى تقبله النفس، وترتاح إليه، ولا تنفر منه، وتعتاد عليه، وهو ما حصل منهم من موالاتهم لشركهم وكفرهم، وصدودهم عن الحق الواضح بالحجة والبرهان. وفي ذلك تظافر بين التزيين وبين المكر الذي فيه الخداع، وصرف الشيء عن حقيقته بحيلة التزيين، مع إخفاء الضر.

فكان وقع التزيين مع المكر هو وقع تظافر وتلاحم في البيان وفي كشف الحقيقة وتعريتها، فتظافر أثر التزيين والمكر حتى أصبح الشرك محبوباً عند المشركين. وفي هذا قوة للبيان وللحجة الربانية في إبطال آلهتهم وكشف دقائق الأسباب الخفية، من الزينة والتزيين والمكر. فكذلك أئمة الكفر زينوا لعامة الناس الشرك بالمكر والمخادعة، فتلبست الناس بالشرك. فكيف تساوون بين من هو قائم على كل نفس بما كسبت وبين عاجزين، مخدوعين بهم من الأوثان والأصنام. وفي هذا كشف للحقيقة التي تبين مدى جهلهم الذي يُوجب عليهم الإقلاع عنه، ولزوم الحق. فهذا هو الذي صدهم عن الحق ﴿وَصُدُّواْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ فانحرف المشركون عن الإيمان بعلة وسبب مكرهم، مع تزيين الشيطان لهم ذلك الشرك والمكر، وكذلك ما كانوا يقومون به من صد الناس عن دين الله تعالى الذي هو سبيله والطريق إليه، بتزيينهم الشرك لغيرهم، والتحذير من الإيمان.

ثم يخبر الله تعالى بنتيجة إصرارهم على الشرك ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ﴾ فالذين خذلهم الله تعالى لإصرارهم على الكفر ليس لهم من أحد يستطيع أن يهديهم ويغير فكرهم، وينقلهم من الكفر إلى الإيمان. مما يبين افتقار الإنسان لتوفيق الله تعالى وهدايته، وذلك بالتواضع للحق وقبوله. وأن المعاند المكابر يخذله الله تعالى، لأنه عرف الحق وحاد عنه. وأن من يخذله اللهُ تعالى فلا أحد يستطيع أن ينتشله مما هو فيه من الخذلان.

فهؤلاء موعودون من الله تعالى بما يستحقون من العذاب، ووعد الله كائنٌ حقاً لا ريب ولا شك فيه ﴿لَّهُمۡ عَذَابٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ فإن لهم في الحياة الدنيا العذاب المهين، ومنه: القتل، والأسر، والأسقام، والفواجع التي هي عذاب لهم في الدنيا، وقد ورد العذاب بصيغة النكرة ﴿عَذَابٞ﴾ ليفيد تعظيم العذاب وتهويله وتنوعه وكثرته. وأما في الآخرة ﴿وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَشَقُّ﴾ فعذاب الآخرة أشق عليهم، وأقوى وأصعب، وأشد وأثقل ﴿وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٖ﴾ وليس لهم عاصم ولا واق يقيهم من عذابه تبارك وتعالى. وفي هذا البيان من الله تعالى ما يفيد الإنذار عما هم عليه، وفيه تهديد وترهيب لهم ووعيد، لعلهم يخافون ويقبلون الحق. وهذا من رحمته تبارك وتعالى وعدله، بأن بين للكافرين مستقبلهم في الآخرة. فلا يأخذهم على جهالة، بل على علم وبيان وموعظة وترغيب وترهيب وتفصيل.

﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ﴿٣٥﴾ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ إِلَيْهِ أَدْعُوا وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ ﴿٣٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَمَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾﴾

فبعد أن ذكر الله تعالى ما للكافرين من العذاب، ذكر ما أعده للمتقين من الجزاء المقيم، وابتدأت الآية الكريمة بالْمَثَل الذي يقرب المعنى والصورة في الذهن، فيكون أقوى في التصور والبيان ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ﴾ فصفة الجنة التي وعد الله تعالى بها المتقين ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ أي: أن الأنهار سارحة في أرجائها وجوانبها ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا﴾ وطعام الجنة وشرابها لا ينقطع أبداً عن أهلها، ولا يفنى، ولا ينتهي. وكذلك ظلها دائم لا ينحصر، ولا ينقطع، فهو دائم الوجود ﴿تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا﴾ فتلك الجنة المذكورة بأوصافها هي عاقبة ومآل المتقين التي يصيرون إليها ﴿وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ﴾ وأما عاقبة ومآل وجزاء الكافرين فهو النار. وهذه مقارنة بين مآل الفريقين، ليتفكر الإنسان ويتعظ، ويكون على نفسه بصيرا.

ومن جميل البيان تقريب المعنى والصورة للمتقين بالمثل ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ﴾ ليتصورها في ذهنه، التي لا يستطيع أن يدرك صورتها الحقيقية، ولكن يتم تقريب الصورة له بالمثل الذي يعرفه من الدنيا، فهي في صفتها العظيمة العجيبة الشأن، كمثل البساتين، فإن ذلك مثلها في التشبيه، وليس في الحقيقة ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا﴾ فلن يستطيع المسلم أن يدرك أرضها، وصفاء مائها، وجداولها، ومرور الماء فيها، وحجم الفواكه فيها، وكثرة أنواعها، وطعم مطعومها، ومشروباتها. فله أن يتصورها من حيث الشبه لما في ذهنه، وليس التطابق. مما يبين أهمية المثل في تقريب الصورة للمخاطب، وللمتعلم، وللموعوظ.

ثم يخبر الله تعالى بمشاعر بعض أهل الكتاب عما ينزل على النبي صلى الله عليه وسلم من القرآن ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَفۡرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ ﴾ فمؤمنو أهل الكتاب من اليهود والنصارى، القائمون بمقتضى ما أُنزل عليهم من الكتاب، يفرحون بما نزل من القرآن الكريم على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، لما في كتبهم من الشواهد والأدلة على صدقه، والبشارة به، فهم الذين آمنوا بالنبي صلى الله عليه وسلم، ودخلوا في الإسلام، فإنهم يفرحون كما يفرح المسلمون من الصحابة رضي الله عنهم، لما فيه من التصديق لما عندهم من التوراة والإنجيل. وأما الصنف الثاني ﴿وَمِنَ ٱلۡأَحۡزَابِ مَن يُنكِرُ بَعۡضَهُۥ ﴾ ومن الطوائف الذين تحزبوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمعاداة من يكذب ببعض ما أنزله الله تعالى على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم.

ومن رحابة البيان في القرآن الكريم أن كلماته تستوفي المراد مهما تعدد المشمولون بدلالاته العميقة. فكلمة ﴿ٱلۡأَحۡزَابِ ﴾ تشمل جميع من تحزب ضد النبي صلى الله عليه وسلم بالمعاندة، لتشمل من اتصف بهذه الصفة من اليهود والنصارى، والمجوس، وبعض قبائل وفصائل العرب التي تحزبت ضد النبي صلى الله عليه وسلم ﴿مَن يُنكِرُ بَعۡضَهُۥ ﴾ أي: إنكار بعضه، فإنهم عرفوا صدق النبي صلى الله عليه وسلم، وأنكروا تصديقه، واليهود والنصارى عرفوا مبعثه وصفاته من كتبهم، وأنكروا نبوته. فبالرغم من معرفتهم بصدقه، وهو البعض، إلا أنهم كفروا به، وهو البعض الآخر. ويشمل إنكار بعضه، الطعن فيه، ليثبتوا لغيرهم أنهم وجدوا فيه ما يوجب الكفر به، ليتحججوا بأنهم عرفوه وتيقنوا منه، وأنهم وجدوا بعضه منكر، مما يوجب رَدَّه والكفر به، حتى يصدوا الناس عنه، حسداً وكبرياء. وهنا يوجه الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بما يقوله لهم ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشۡرِكَ بِهِۦٓۚ إِلَيۡهِ أَدۡعُواْ وَإِلَيۡهِ مَـَٔابِ ﴾ قل يا محمد إنما أمرني الله تعالى أن أعبده وحده لا شريك له، وأنفي الشرك عن ربي تبارك وتعالى ﴿إِلَيۡهِ أَدۡعُواْ وَإِلَيۡهِ مَـَٔابِ ﴾ أي: أدعو الناس إلى دين الله تعالى الذي أمرني به، وليس لغيره أدعو، وبذلك ينفي ما عداه، ويُثبت الإخلاص له تبارك وتعالى، وينفي بذلك أن تكون الدعوة من أجل ذاته ولنفسه، أو لأحد من الخلق، أو لأي مقصد آخر من المقاصد الدنيوية ﴿وَإِلَيۡهِ مَـَٔابِ ﴾ فإليه وحده مرجعي ومصيري. فيؤكد بهذا أن الرجوع سيكون إلى الله تعالى، مما يؤكد به أن هناك بعث بعد الموت، ويتبعه حساب وجزاء.

فبعد أن ذكر سبحانه وتعالى موقف أهل الكتاب، وما يجب أن يلتزم به صلى الله عليه وسلم تجاه من كفر، ينتقل السياق الكريم إلى بيان مقام هذا القرآن ومنزلته ومكانته وصفته العظيمة، بأنه نزل بلغة عربية مُحْكَمَةُ، وأن أولئك الفريق من أهل الكتاب فرحوا به، وجدير بالعرب وأولى بهم أن يؤمنوا ويفرحوا به. فقال

الله تعالى ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَمَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا وَاقٍ ﴾ فكما أنزلنا الكتب السابقة على الأنبياء بلغتهم، أنزلنا هذا القرآن بلغة العرب، محكماً، متقناً، معرباً، بأوضح وأفصح اللغات، مشتملاً على الحكمة، ومنها الإحكام والأحكام، وأصول الشريعة، وفروعها. فإن الأولى بأهل العربية أن يدركوا إعجازه فيؤمنوا، ويفرحوا به. وفي هذا مدح وثناء للغة العربية التي وسعت كتاب الله تعالى لفظاً وغاية. والتي هي أفصح اللغات بياناً واستيعاباً. وكذلك من شرف وقوة ورفعة كتاب الله تعالى أنه موصوف بالحكم الذي يعني الحكمة ﴿ حُكْمًا عَرَبِيًّا ﴾ وفي ذلك امتنان على اللسان العربي، وعلى العرب بهذا القرآن العربي العظيم الذي يخلد لغتهم ما بقي القرآن الكريم يُتلى في الدنيا إلى يوم القيامة.

ثم ينتقل سياق الآية سريعاً إلى التحذير من اتباع ما يطلبه الأحزاب من المشركين والكافرين عموماً، بالانحراف والتنازل عن شيء من الدين، وجاء التوجيه الكريم إلى النبي صلى الله عليه وسلم ليفيد تعظيم النهي، وتعظيم الوعظ، وتعظيم الأمر ﴿ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَمَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا وَاقٍ ﴾ فإذا كان هذا التوجيه للنبي صلى الله عليه وسلم على عظيم مقامه عند ربه تبارك وتعالى، فإنه أولى بالمؤمنين أن يحفظوا دينهم، وينتبهوا لهذا الأمر، ويحذروا منه ﴿ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم ﴾ فلئن اتبعت أيها النبي ما يطلبون منك بموافقتك لهم عليه ﴿ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم ﴾ وهي جملة جامعة لكل مفردات ما يطلبون من النبي صلى الله عليه وسلم، سواء من أهل الكتاب، أو المشركين أو غيرهم: كالتَّوجّه إلى قبلتهم، أو اتباع ملة آبائهم، وكذلك ليستمر هذا التوجيه للمؤمنين ما بقية الحياة، مع تعظيم خطره، بأن كان البيان موجهاً للنبي صلى الله عليه وسلم، مما يعني أنه يجب عليهم أن يكونوا أشداء في الحرص والثبات.

ومن دقائق البيان أن جعل الله تعالى ما يطلبون بلفظ الأهواء، لأنها تعبر عما هو حادث في ذلك الوقت، ولتستوعب ما قد يستجد من الأهواء المتجددة عبر الأزمان، وتنوع الأمكنة واختلاف المصالح، كما أن كلمة الأهواء معبرة عما ينبع من الرأي والهوى والميل الذي لا حقيقة ولا حجة عليه من الله تعالى. ثم يؤكد الله تعالى حقيقة ما أنزله على نبيه صلى الله عليه وسلم بأنه علم حقيقي ثابت عن الله تعالى، فلا يتبدل ولا يتغير ﴿ بَعْدَمَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ﴾ أي: ما جاءك من الله تعالى، وهو القرآن والسنة، وما نهاك عنه، وحدده لك أيها النبي، وبينه، فدلالة العلم شاملة لكل ما جاء عن الله تعالى، فليس بعد قوة وسعة بيانه لك أن تتبع رضاهم وما يحبون من الأهواء ﴿ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَمَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا وَاقٍ ﴾ فإن اتبعت ما يحبون، وسعيت في رضاهم فليس لك نصير ولا مدافع ﴿ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن

وَلِيٍّ ﴾ أي: ليس لك من ينفعك وينصرك منه سبحانه وتعالى، فيتولى عنك ما يصد به عنك عذاب الله تعالى ﴿وَلَا وَاقٍ ﴾ أي: ولا مدافع، يَقيك عذاب الله تعالى ويمنعك منه. وفي هذا تحذير وتهويل، وتشديد عظيم من الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم، والْمَعْنِي به المؤمنين، ليحذروا ويجتنبوا مخادعة الكافرين لهم، من بعد أن جاءهم العلم الواضح الذي لا لبس فيه، والحذر من أعداء الملة بأهوائهم.

وفي هذا رفع معنوياتهم وشحذ هممهم تجاه دينهم ونبيهم صلى الله عليه وسلم، كقوله تعالى في سورة الزمر ﴿ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ ﴾ فلا يمكن أن يشرك عليه الصلاة والسلام، وهو الموحد لربه تبارك وتعالى قبل نبوته وبعثته صلى الله عليه وسلم، ولكن ليكون ذلك تحذيراً للمؤمنين، قال الشوكاني رحمه الله تعالى: الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم تعريضاً لأمته[1] قال ابن كثير رحمه الله تعالى: هذا وعيد لأهل العلم أن يتبعوا سُبُل أهل الضلالة بعدما صاروا إليه من سلوك أهل السنة النبوية، والمحجة المحمدية[2] صلى الله عليه وسلم. فإذا كان ذلك في حق النبي صلى الله عليه وسلم، على جلالة قدره ورفعة منزلته صلى الله عليه وسلم، فكيف بمن هم دونه. ففي هذا رفع لمقام وقوة التحذير والتهويل، ليكون تنبيهاً قوياً بأقوى الدلالات. وليكون ذلك التحذير أكثر أثراً على المؤمنين، فإذا كان هذا التحذير بالوعيد للنبي صلى الله عليه وسلم بالعذاب وهو صاحب المنزلة الرفيعة والمكانة العالية عند ربه تبارك وتعالى، وحاشاه أن يكون منه ذلك، فكيف بمن هم دونه، مما يفيد قوة وشدة التحذير والتنبيه للمؤمنين ولعلمائهم وحكامهم.

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً ۚ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾ يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَـٰبِ ﴿٣٩﴾ وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَـٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴿٤٠﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤١﴾ وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا ۖ يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّـٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٤٢﴾

(١) الشوكاني، فتح القدير (٨٨/٣)

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٥٤٠/٢)

﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَسْتَ مُرْسَلًاۚ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدَۢا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٤٣﴾ ﴾

ويعود الرد على المشركين، بإقامة الحجة عليهم، وبيان أن من يرسلهم الله تعالى لعباده من المرسلين هم بشر، مثل غيرهم، وليس لأحد منهم أن يأتي بآية من نفسه، وإنما تأتي الآيات بإذن الله تعالى وتقديره، وليس بما يقترحه الناس على أنبيائهم ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةًۚ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴾ فقد قطعت وجزمت الآية الكريمة بحرف التحقق ﴿ وَلَقَدْ ﴾ والذي يفيد التأكيد بأن الله تعالى قد أرسل المرسلين من قبلك أيها النبي صلى الله عليه وسلم، وكانت لهم زوجات، ولهم ذرية، أي: نسل من الأولاد، بما يفيد أنهم بشر من الناس، وفي ذلك رد على من يتوهم أو يطلب رسلاً من الملائكة تكلمهم، أو ينكر زواج النبي صلى الله عليه وسلم من النساء. فما محمد صلى الله عليه وسلم إلا واحد من أولئك المرسلين المتصفين بتلك الصفات، وإن كان الخطاب موجه للنبي صلى الله عليه وسلم فإن المقصود ببيان الخطاب المنكرون الذين ينكرون أن تكون الرسالة على بشر مثلهم ومنهم، أو ينكرون زواج النبي صلى الله عليه وسلم من النساء، وتعدد الزوجات ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً ﴾ فليس محمد صلى الله عليه وسلم خارج عن أولئك المرسلين. وفي هذا رد لكل صاحب شبهة، وكذلك يبين ويدل على أن من الحكمة في نزول القرآن متفرقاً طيلة البعثة النبوية، هو معالجته للقضايا التي تظهر، فيرد عليها في حينها، فيقوى إيمان المؤمنين، ويزيل الشُّبَه عن أصحاب الشبهات. مما يؤكد أن دين الله تعالى هو دين معالجة للشبهات والشهوات بأحسن الأساليب وأكملها وأطيبها وأوضحها.

وكما أن شأن النبي محمد صلى الله عليه وسلم هو شأن من سبقه من الأنبياء في اتخاذ الزوجات، وحصول النسل من الذرية، فكذلك شأنه في الآيات كشأن من سبقه من الأنبياء، إذ لا يأتون بالآيات من عند أنفسهم ﴿ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴾ فبدأ النص الكريم بقوله تعالى ﴿ وَمَا كَانَ ﴾ الذي أفاد النفي القطعي، والمبالغة في النفي، فليس حقاً لنبي من الأنبياء أن يأتي بما يُطلب منه من الآيات، أو يختار هو الآيات، أو أقوامهم ﴿ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ وحصر سبحانه وتعالى الآيات والإتيان بها له عَزَّ وجل ﴿ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ فهو الذي يأذن بحصول الآية وإظهارها كما يريدها ربنا تبارك وتعالى ﴿ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴾ فلكل أجل قضاه الله تعالى وقَدَّره

كتابٌ قد كتبه، فهو عنده. فلكل أمر قَدَّره الله تعالى زمن وأجل، وهذا الأجل في كتاب عند الله عَزَّ وجل، أثبت فيه ما قضاه وقدَّره، فلا تكون آية ولا غيرها إلا بأجل قد قضاه الله تعالى وقَدَّره في كتاب. ولو جعل الله تعالى الآيات من اختيار الناس، لتعددت اختياراتهم، ولتمادوا في ذلك وتباينوا واختلفوا فيما يطلبون، ولأصبح لكل منهم خيار واختيار، ولكن فصل الله تعالى الأمر بحكمته وقدرته العظيمة الجليلة.

ثم يقرر الله تعالى حكمه وسلطانه ومشيئته وانفراده بذلك الأمر، وبكل أمر ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ فهذا النص من الله تعالى هو حكم وتقرير عام لسلطان مشيئته عَزَّ وجل. فيمحوا الله تعالى ما يشاء من الأحكام وغيرها، ومن ذلك أنه ينسخ حكماً، فيُثبت غيره، فَيُثبت الناسخ، ويلغي حكم المنسوخ. ومن ذلك أعمال العباد، واستغفارهم من الذنوب، فيمحو الذنب، ويرفع الدرجات. وقد ذُكِرت أقوال من العلماء في ذلك. قال الشوكاني رحمه الله تعالى: إن ظاهر النظم القرآني: العموم في كل شيء مما في الكتاب، فيمحو ما يشاء محوه، من شقاوة أو سعادة أو رزق، أو عمر، أو خير أو شر، ويبدل هذا بهذا، ويجعل هذا مكان هذا، لا يُسأل عَمَّا يفعل وهم يُسألُون، وإلى هذا ذهب عمر بن الخطاب، وعبد الله بن مسعود، وابن عباس، وأبو وائل، وقتادة، والضحاك، وابن جرير وغيرهم[١] وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول وهو يطوف بالكعبة: اللهم إن كنت كتبتني في أهل السعادة فأثبتني فيها، وإن كنت كتبت علي الذنب والشقوة فامحني، وأثبتني في أهل السعادة، فإنك تمحو ما تشاء، وتُثبت، وعندك أم الكتاب. وكان ابن مسعود رضي الله عنه يقول: اللهم إن كنت كتبتني في أهل الشقاء فامحني وأثبتني في أهل السعادة[٢] وهذا يبين جلالة وعظمة الله تعالى، وعظيم سلطانه وتدبيره، فهو يغير ويمحوا ويثبت ما يشاء، فلا معقب لحكمه، فهو العزيز الحكيم.

ومن بلاغة البيان، وجمال تراكيبه، أنه بعد ورود كلمة ﴿وَيُثْبِتُ ﴾ لم تُعاد جملة ﴿مَا يَشَآءُ ﴾ لأن ترتيب سياق لفظة ﴿وَيُثْبِتُ ﴾ في الآية الكريمة أغنى عن إعادة جملة ﴿مَا يَشَآءُ ﴾ فلم يقل تبارك وتعالى: يمحو الله ما يشاء، ويثبت ما يشاء. وإنما قال عَزَّ وجل ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ﴾ وهذا من دقة بلاغة البيان الرباني، باستغنائه عن زيادة الألفاظ. وهذا من إعجاز النظم البياني في القرآن الكريم.

ثم يخبر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بما يقرره تبارك وتعالى في شأن المكذبين، وانفراده بتعجيل أو تأجيل عقوبة هؤلاء المكذبين ﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ

(١) الشوكاني، فتح القدير (٨٨/٣)

(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٥٦٤/١٣)

ٱلۡبَلَٰغُ وَعَلَيۡنَا ٱلۡحِسَابُ ﴾ فإما أن يقع العذاب بهؤلاء المكذبين في حياتك، أو نتوفاك قبل أن نُريك ذلك، فيبين الله تعالى بذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم ليس له تقديم أو تأخير بعض ما يعدهم به من العقوبة، فإن الأمر راجع إلى لله تعالى، فلا تنتظروا من أحد أن يقرر ذلك غير الله تعالى، وكذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم ليس مأموراً بالعقوبات، ولا أن يترقب ذلك، ويُشغِل نفسه بذلك، وإنما المأمور به عليه الصلاة والسلام هو قوله عَزَّ وجل ﴿فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُ وَعَلَيۡنَا ٱلۡحِسَابُ ﴾ فالذي على النبي صلى الله عليه وسلم تبليغ العباد رسالة الله تعالى لهم، وأما الحساب والجزاء من خير أو شر فهو لله تبارك وتعالى، وبالتالي فإن النبي صلى الله عليه وسلم ليس مسؤولاً عن صلاح أو فساد أحد من العباد. ومن عمق البيان ودقته في تحرير مسؤولية النبي صلى الله عليه وسلم أنه حدده وقصرها في الإبلاغ والإرشاد فقط، فأوردها البيان بأداة الحصر ﴿فَإِنَّمَا ﴾ فقد حصرت المسؤولية في البلاغ دون غيره مما يطلبون ويقترحون، بما يفيد أهمية تحديد المسؤولية في الأعمال لمن يتم تفويضه، وعدم مطالبته بما ليس من واجباته، وكذلك أهمية أن يفهم من حوله ذلك، حتى لا يتوقعون منه ما ليس من شأنه ومسؤولياته.

ومن دقائق البيان الكريم أن الله تعالى قال عما يصيبهم من العذاب ﴿بَعۡضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمۡ ﴾ فهو جزء مما يعدهم الله تعالى به، بما يفيد أن هناك عذاباً آخر لهم: في القبور، وفي اليوم الآخر. ومن دقائق النص الكريم كذلك هو البيان والتوضيح بأنه صلى الله عليه وسلم قد يرى بعضاً من الذي يصيبهم من العذاب، ولا يرى بعضه، وفي ذلك تهديد وتخويف وترهيب لهم. وكذلك أن وفاته صلى الله عليه وسلم لا تعني توقف ما يعدهم الله تعالى به من العذاب، فليس العذاب مرتبط بحياته عليه الصلاة والسلام.

ومن دقائق البيان كذلك قوله تعالى ﴿أَوۡ نَتَوَفَّيَنَّكَ ﴾ فنسب سبحانه وتعالى إيقاع الوفاة له جَلَّ جلاله، لتدل كذلك على أنه قد يتوفاك قبل أن ترى ما سيقع بهم من العذاب. وقد أغنت جملة ﴿أَوۡ نَتَوَفَّيَنَّكَ ﴾ عن إعادة جملة ﴿بَعۡضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمۡ ﴾ فتكون الجملة: نتوفينك قبل الذي نعدهم. فسياقها وموقعها من السياق، أغنى عن إعادتها، وهذه من غزارة البلاغة البيانية في كتاب الله تعالى، بالاستغناء عن زوائد الكلام. فالوفاة كناية عن عدم رؤية ما يقع بهم من العذاب، ليبين سبحانه وتعالى أن رسوله صلى الله عليه وسلم ليس مسؤولاً عن العقاب، وأن وفاته عليه الصلاة والسلام لا تمنع وقوع العذاب على الكافرين المعاندين. وفي هذا بيان بأن أمر الدين والعقوبة ليست قاصرة على وجود النبي صلى الله عليه وسلم، وأن دين الله تعالى مستمر بعد وفاته، والعقوبات قد تحصل منه تبارك وتعالى في أي وقت وأي مكان، ولأي أحد ولأي قوم من الأقوام. وقد شاهد عليه الصلاة والسلام ما حصل للمشركين من عذاب القتل والأسر في بدر وغيرها من الغزوات، ولم ير بعضها عليه الصلاة والسلام، كحروب الردة.

ثم يخبر الله تعالى بأسلوب عظيم في سياقه، ودلالة بيانه، ومقاصده، عن حال المكذبين ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾ فبدأ البيان الإلهي بسؤال استنكار عن حال المكذبين فيما يرونه من تدبيره عَزَّ وجل، ومقرراً به حقيقة تدبيره التي تُوجب عليهم التصديق برسوله صلى الله عليه وسلم ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ ﴾ فاشتمل السؤال على استنكار تغافلهم، وتجاهلهم لما هو محسوس بالرؤية البصرية، ومُدْرَك برؤية البصيرة، أفلم يشاهدوا بأبصارهم، ويتأملوا ببصيرتهم ﴿ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ﴾ أفلم يرى هؤلاء المكذبون أننا نفتح الأرض بعد الأرض لمحمد صلى الله عليه وسلم، فيظهر الإسلام على الشرك قرية بعد قرية، مما يُوجِبُ عليهم أن يفكروا فيما رأوا من هذه الفتوحات وانتشار الإسلام، بأن يفتح الله تعالى أرضهم على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم كما فتح غيرها؟ أفلا يتفكرون ويتدبرون فيما رأوا من نقص الكفر، وزيادة الداخلين في الإسلام، قال ابن عباس رضي الله عنهما: يعني بذلك ما فتح الله على محمد، يقول: فذلك نقصها[١] وهو ما تَغَلَّب عليه من أرض العدو.

وفي هذا بيان بنقصان الكفر من أطراف مكة التي هي مركز الأرض، والقبلة المشرفة، فتتناقص أرض الشرك بالفتوحات المتوالية. وفي هذا بشارة بظهور الإسلام وتمدده وانتشاره، وهذا من وفاء الله تعالى بقهر الكافرين من أهل الشرك وغيرهم، وأن الله تعالى قد مَكَّن نبيه صلى الله عليه وسلم من رؤية بعضاً مما وعد الله تعالى به الكافرين من الهلاك، كما في الآية السابقة لهذه الآية الكريمة ﴿ وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ ﴾ أفلا يَعْتَبِر هؤلاء بما يرونه بأعينهم وبصيرتهم من هذا الفتح الذي يظهر منه أنه قادم إليهم، فشملت الرؤية في قوله تعالى ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ ﴾ المشاهدة البصرية بالعين، ورؤية البصيرة الدالة على نبوته صلى الله عليه وسلم، وامتداد هذا الدين وانتشاره في أطراف مكة التي هي مركز الأرض. بل ومن دلائل البيان أن في تسمية مكة المكرمة بالأرض، وما حولها هو أطراف لها، دليل على أن مكة المكرمة هي المحور، وهي قلب الأرض ومركزها، ففيها بيت الله الحرام، وفيها الكعبة المشرفة، وقبلت المسلمين، فأصبح موقعها يُشكل لُبُّ الأرض ومركزها، وغيرها أطراف لها. ومما يدلل على هذا المقصد هو أن انتشار الإسلام في الأطراف بدأ من المدينة بالغزوات والسرايا، كسرية زيد بن حارثة رضي الله عنه إلى بني سُليم بالجموم، وإلى العيص، وإلى وادي القُرَى، وسرية عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه إلى دومة الجندل، وسرية عمر بن الخطاب رضي الله

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٥٧٥/١٣)

عنه إلى تربة، وسرية أبي بكر الصديق إلى نجد، وسرايا كثيرة، ثم حصل فتح مكة. ثم استمرت السرايا والغزوات ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ﴾

ومن فوائد دلائل السياق أن قوله تعالى ﴿ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ﴾ ما يفيد قضاء الله تعالى بهذا الأمر ﴿ أَنَّا ﴾ وهو ضمير المتكلم، وهو الله سبحانه وتعالى، وقد نسب عَزَّ وجل إنقاص الأرض إليه تبارك وتعالى، وبضمير التفخيم والتبجيل والعظمة ﴿ أَنَّا ﴾ وكذلك تكرار الضمير في الفعل ﴿ نَأْتِي الْأَرْضَ ﴾ وكذلك في الفعل ﴿ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ﴾ ليفيد تأكيد الفعل بالتحقق، وتعظيم الأمر، وبيان القهر لكل من يعاند ويكابر، وأنهم مغلوبون على أمرهم وعنادهم، أفراداً وجماعات.

وفي قوله تعالى ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا ﴾ توبيخ لهم على عدم اتعاظهم بما يرون ويشاهدون، فإنها آيات باهرات لمن كان له قلب واعٍ، يبحث عن الحق ويتبعه. وفي ذلك طرد لتوهمهم من أن الأمر حولهم فقط، ولن يأتيهم منه شيء، وكذلك فيه إبطال لقوتهم، وإنذار لهم بالتفكر والتأمل والتبصر. وفيه إيقاظ وتنبيه لهم، بل وتم البيان لهم ولغيرهم بلفظ الإنقاص ﴿ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا ﴾ وهو كناية عن تناقص الكفر، ليقابله زيادة انتشار الإسلام، وكذلك لفظ الأطراف ﴿ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ﴾ وأطراف الشيء ما هو حوله من أجزائه، لتعبر عن الحقيقة التي لا مست الأطراف، وأنها قادمة إلى القلب والمركز والأساس. فإنه بيان عظيم في قوة دلالاته، وعظمة براعته، وجزالة بيانه، وتركيب ألفاظه. ليكون معجزاً حتى في سياقه، كما هو معجز في حقيقة أخباره، ووعده ووعيده، وأحكامه وتشريعه. وفي ذلك حكم وبيان على زوال الشرك من مكة المكرمة كما زال من أطرافها. وكان واجبهم أمام هذا البيان، والمشهد الحقيقي على تناقص الكفر، وحلول الإسلام محله أن يُذعنوا ويعتبروا ويهتدوا.

ثم يقرر تبارك وتعالى قاعدة عظيمة للعباد، ليدركوا مغزاها ومعناها، وحقيقتها التي لا تتبدل ولا تتغير ﴿ وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ ففي هذا النص الكريم بيان لقاعدة اعتقادية عظيمة، تؤكد أن ما قضاه الله تعالى كائن لا محالة عنه أبداً، ولن تقوى عليه قوة، ولن ترده إرادة المخلوقين، ولا مكر الماكرين، ولا أي سبب من الأسباب، مهما عظم في نفوس المخلوقين. وأن التأخير من الله تعالى لا يعني التوقف، بل إن الله تعالى حليم رحيم. فإن الله عَزَّ وجل هو الذي يحكم بما يريد ﴿ وَاللَّهُ يَحْكُمُ ﴾ وفي هذا تعظيم لحكم الله تعالى، وإرادته، بأنه هو المتفرد بالحكم الذي لا ينقضه أحد أبداً، وفيه إظهار المهابة والعظمة لله

تعالى ولحكمه عَزَّ وجل ﴿ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ ﴾ فنفى جَلَّ جلاله كل مُتَعَقِّبٍ ومُسْتَدْرِكٍ لأمر من الأمور، وكل صاحب قدرة مَكَّنَهُ اللهُ تعالى منها، فإنه لا ينطبق على أحكام الله عَزَّ وجل إذا حكم بأمر، سواء مِنْ إعزازٍ ونصرٍ لأحد، أو إذلالٍ وهزيمةٍ، أو تدميرٍ أو إحياءٍ، أو غير ذلك مما يحكم به الله تعالى ﴿ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ ﴾ فلا يُبطل حكمه جَلَّ جلاله أحد، وفي هذا نفي قاطع جازم. فإنه قد حكم جَلَّ جلاله بإعزاز رسوله محمد صلى الله عليه وسلم، ودينه والمؤمنين، فلن يغلب حكمه أحد أبداً. وقد تحقق ذلك وفق ما حكم به تبارك وتعالى. فلا يتعقب أحدٌ حكم الله تعالى بنقص ولا تغيير ﴿ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾ ومن قدرته تبارك وتعالى وما خص به مقامه عَزَّ وجل أنه سريع المحاسبة، وسريع الجزاء، فيجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته. فعليهم أن لا يستعجلوا عذابه سبحانه وتعالى بتماديهم وطغيانهم، وعدم امتثالهم للحجج والأدلة والبراهين.

ثم يخبر الله تعالى بسوابق من سبق من الأمم، في تمردهم ومكرهم، نتيجة إعجابهم بقدراتهم على المكر والخديعة، وكيف مكر الله تعالى بهم، وفي هذا تطمين للنبي صلى الله عليه وسلم ومن آمن معه من المؤمنين، بأن العاقبة لهم، وأن الله تعالى يمحق مكر الماكرين مهما كانت قوتهم وخدعتهم، وفيه كذلك تحذير للمشركين والكافرين عموماً ﴿ وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا ﴾ فإن من سبقهم كفروا فمكروا، ولكن الله تعالى مكر بجميع من مكر. مما يبين أن هذا هو منهج الكفار، الذي تعاقبوا عليه. وقد جاء هذا البيان بعد أن أوضح الله تبارك وتعالى أخذه لأطراف الأرض، بإنقاص المشركين وزيادة عدد المؤمنين بدين الله تعالى، وبرسوله صلى الله عليه وسلم، ليفيد المزيد من التحذير للمشركين، من عدم الغرور بمكرهم، والإعجاب بقدراتهم العقلية وما يملكون وبما يحتالون به، وفيه دعم نفسي لنفوس المؤمنين وللنبي صلى الله عليه وسلم، وكذلك إخبار بعجز هؤلاء الكفرة أمام مكر الله تعالى، وأنه سيجعل مكرهم بواراً وهباءً، فلا قيمة ولا تأثير له، فإن مكرهم هذا كالعدم. وفي هذا بلاغ إعجاز لما هو قادم، وقياس على ما سبق من إهلاك الله تعالى للماكرين.

وقد أثبت الله تبارك وتعالى حصول المكر من الأمم السابقة مع أنبيائهم ﴿ وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ مُبْتَدِأً هذا الخبر بحرف التحقيق ﴿ وَقَدْ ﴾ ليفيد تحقق هذا الأسلوب من قبل، ولكن المكر الحقيقي المهلك هو مكر الله تعالى، فإنه عَزَّ وجل قابلهم بمثل ما فعلوا، وجاء البيان عن مكره عَزَّ وجل بأسلوب الحصر، فقد حصر المكر الحقيقي الذي لا يرده أحد له عَزَّ وجل ﴿ فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا ﴾ وبالتالي فإن عاقبتهم كعاقبة من سبق من الأمم، فإن حالهم سيكون كحال الأمم التي أبادها من قبل جلت قدرته. وقد أثبت الله تعالى لعباده القدرة على المكر بما مكنهم فيه ﴿ وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ ولكن مكرهم لا يقاس على مكر الله تعالى، فإن عذاب الله تعالى شديد وسريع، ولا يرده أحد أبداً.

فيا أيها النبي إن هؤلاء القوم قد مكروا، كما مكر الذين من قبلهم من الأمم السابقة مع أنبيائهم، فأصاب العذابُ الذين مكروا من قبلهم، وسيكون حال هؤلاء كحال السابقين، فإنه الله سبحانه وتعالى سيمكر بهم بمثل ما فعل بمن سبقهم من الأمم، فليتعظوا بغيرهم. وقد حصر وخص الله تعالى نفسه الكريمة العظيمة بجميع المكر ﴿فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا﴾ فجميع المكر الذي لا يرده شيء هو له عَزَّ وجل، وليس لغيره، فإن من يملك جميع صنوف المكر، ليس كالمحدودين في قدراتهم، إلا بما مكنهم الله تعالى منه. وبالتالي فإن كل مكر هو تحت قهر ومكر الله تعالى وسلطانه، فهو مهزوم ومدحور. وبالتالي فإن مكر غيره سبحانه وتعالى هو بمنزلة العدم أمام مكره جَلَّ جلاله، ومن دقة البيان وجمال نظمه، وكمال معناه وإعجازه، أن نسب الله تعالى المكر لنفسه بقوله عَزَّ وجل ﴿فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ﴾ ثم أكده بجميع أنواعه، ومستوياته، وذلك بإضافة كلمة ﴿جَمِيعًا﴾ إلى سياق قوله عَزَّ وجل ﴿فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ﴾

ثم ينتقل السياق العظيم إلى بيان سعة علمه سبحانه وتعالى، بما يعضد إفهام المخاطبين وخاصة الجاحدين بقدرته سبحانه وتعالى على المكر بهم، وبمن أراد، فإن علمه أعمق وأدق وأعظم من جميع مخاليقه حتى ولو اجتمعوا على مكر واحد، فمن دقة وغزارة وسعة علمه أنه ﴿يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ﴾ وأن مَن يعلم ما تكسب كل نفس فهو أقدر بالمكر بكل نفس، وأن مكره أشد على كل نفس، لأنه لا يفوته شيء مما تضمره وتكنه النفوس، وما تبطنه من المكر وتخفيه. فإنه يعلم ما تكسب كل نفس من خير أو شر، وقليل أو كثير، بل يعلم بنية عبده فيما يكسب وما يترك. وبالتالي كمال قدرته عَزَّ وجل على كل ما يترتب على هذا العلم من المحاسبة والجزاء، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر. وجملة ﴿يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ﴾ تفيد كمال الإحاطة بكل نفس، وهي إحاطة تامة لا يفوت منها شيء أبداً، والكسب قد يكون بالقول أو بالعمل والتدبير، وما تضمره وتخفيه وتبطنه من الخير والشر لتكتسب به ما تريد. وقد جمع الله تعالى جميع الأنفس بلا استثناء ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ مهما علت وكبرت، ومهما كان منها من القدرة على التخفي، وهو يشمل كل شيء له نفس، كالحيوان والحشرات والدواب. وفي ذلك تحذير وتبشير، فهو تحذير لما تكسبه النفوس من الشر، وما يتبعه من الجزاء بعد الحساب، وهو بشارة لمن يكسب الخير، فإنه لا يخفى على الله تعالى، فهو يعلمه سبحانه وتعالى، ويجازي عليه بالخير.

وعند حصول المكر من الله تعالى سيعلم الكفار الحقيقة حينها ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ فحينها سيعلم الكفار لمن العاقبة المحمودة من الفريقين في دار الدنيا، ثم في الدار الآخرة. وقد جمع معنى ﴿ٱلْكُفَّٰرُ﴾ جنس الكفر، أي سيعلم جنس الكافرين جميعاً تلك العاقبة الحقيقية. وجملة ﴿لِمَنْ عُقْبَى

ﵟٱلدَّارِﵞ تفيد حقيقة المآل بأسلوب الاستفهام، الذي يستثير التأمل والتفكر، وأخذ الحيطة من العاقبة، كما أن جملة ﵟلِمَنۡ عُقۡبَى ٱلدَّارِﵞ تفيد لمن تكون الدائرة والعاقبة عموماً، لتجمع دلالتها الدنيا والآخرة. وهي ترمز وتدل على العاقبة الحسنة، والمآل الحسن، للمؤمنين. والعقبى: هي العاقبة والمآل، الذي يقع عقب شيء آخر. وقد وردت معنى عقبى الدار في هذه السورة، في قوله تعالى ﵟأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ٢٢ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٖ ٢٣ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ٢٤ﵞ وأسأل الله تعالى أن يرزقنا عقبى الدار، والمسلمين أجمعين.

وتنتهي سورة الرعد بقوله عَزَّ وجل ﵟوَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَسۡتَ مُرۡسَلٗاۚ قُلۡ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدَۢا بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡ وَمَنۡ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلۡكِتَٰبِﵞ وهذا نوع من أنواع مكر الكافرين ﵟوَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَسۡتَ مُرۡسَلٗاﵞ فينفون عنه صلى الله عليه وسلم الرسالة. حتى يصدوا الناس عن هذا الدين بنفي الرسالة عن الرسول صلى الله عليه وسلم، وإشاعتها بين الناس، ليسلك غيرهم مسلكهم، لأن في نفي الرسالة قطع للتفكير فيما أتى به النبي محمد صلى الله عليه وسلم عن ربه عَزَّ وجل من القرآن الكريم والسنة النبوية المشرفة، وما فيهما من الحجج والبراهين. فلسان حالهم يقول إنه لم يأت بحجة وآية يُثْبِت بها أنه رسول من الله تعالى، وهو تصريح صريح منهم بالكفر، ودعوة للناس بالكفر، وعدم التصديق به، والتحذير منه.

ومن دقائق البيان في كشف استمرار حالهم على الكفر، والادعاء بأنه صلى الله عليه وسلم ليس مُرسلاً هو إيراد الله تعالى قولهم بصيغة الفعل المضارع المستمر ﵟوَيَقُولُﵞ الذي يفيد الاستمرار في قولهم بأنه ليس مرسلاً. وقولهم ﵟلَسۡتَ مُرۡسَلٗاﵞ يفيد أنهم يخاطبون به النبي صلى الله عليه وسلم، مما يدل على قوة مجاهرتهم بذلك، مما يدل على أنهم خالطوا النبي صلى الله عليه وسلم مخالطة عرفوا به حقيقة نبوته، وفهموا الآيات والحجج، ولكنه كفر معاندة وتطاول، واستكبار وحسد.

فيرد الله تعالى عليهم بمخاطبة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ﵟقُلۡ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدَۢا بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡ وَمَنۡ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلۡكِتَٰبِﵞ قل يا محمد لهؤلاء الكافرين، فإن تكفروا بي، ولا تشهدوا لي بالرسالة، فإن الله تعالى العظيم الجليل يشهد لي بالرسالة، وصِدق دعوتي، فتكفيني هذه الشهادة من الله تعالى

بيني وبينكم ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ فإن الله عَزَّ وجل يشهد عليكم بالكذب على نبيه ورسوله صلى الله عليه وسلم، وهو خير من يشهد عليَّ وعليكم، وكفى بشهادته شهادة على صدق ما أرسلني به، وما كذبتم به. فإنني مستغني عن شهادتكم، لأنها لا تنفعني، ولا يضرني تكذيبكم بما أُرسلتُ به، بينما شهادة الله تعالى تكفيني حجة وتأييداً ونصرة على من يكذبني، ويعاند ويعاديني. وفي إشهاد الله تعالى قطع جازم وتأكيد جازم بنبوته، وبما أُرسل به صلى الله عليه وسلم، وتحذير لمن كذب، ونفى عنه الرسالة صلى الله عليه وسلم، وفي هذه الشهادة من الله تعالى رفعة للنبي صلى الله عليه وسلم.

وكذلك هناك شهادة أخرى، وهي ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي: شهادة أهل الكتاب، ممن عندهم العلم بالكتاب من اليهود والنصارى، وهم علماء أهل الكتاب، لما يجدونه عندهم في التوراة والإنجيل من وصفه وذكره عليه الصلاة والسلام. قال ابن كثير رحمه الله تعالى: والصحيح في هذا: أن ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ اسم جنس، يشمل علماء أهل الكتاب، الذين يجدون صفة محمد صلى الله عليه وسلم ونعته في كتبهم المتقدمة، من بشارات الأنبياء به[1] وفي هذا النص الكريم شمولية لكل من عنده علم من الكتاب، وفيه ثناء على أهل العلم من أهل الكتاب. وقد أسلم من أهل الكتاب الكثير في عهد النبي صلى الله عليه وسلم، لما عرفوا من كتبهم حقيقة نبوته صلى الله عليه وسلم، المذكورة عندهم في التوراة والإنجيل، وفيما سبقهما من كتب سماوية عن الله تعالى.

وبفضل الله تعالى تم الانتهاء من سورة الرعد، فالحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد.

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٢/٥٤٠)